لامنس والأمانة العلمية
حول الخلافة الإسلامية

دكتور عبد الحليم حفني

المطبعة النموذجية
سكة الشابوري تليفون ٩١٩٣٧٧
ت ٩١٩٣٧٧ — ٩١٨٦٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كنت طالباً بالفرقة الثانية فى الكلية حينما عرض لى فيما عرض من القراءة حديث «لامانس» عن الخلافة الإسلامية ، فأثارنى ؛ لا لأنه حملة موجهة ضد الإسلام — فما أكثر الحملات فى طول التاريخ وعرضه ضد الإسلام ، منذ بزغت شمس الإسلام حتى اليوم — ولكن ما أثارنى هو أنها حملة من طراز يختلف عن العداء الصريح ، والحرب الموجهة ، حملة تتخذ من التاريخ والعلم مطية لتحقيق هدف يبدو فى ظاهره بحثاً علمياً ، ولكنه فى حقيقته تضليل على ومسخ وتشويه للتاريخ وأمانة البحث ، فأيسر ما تحتمه الأمانة العلمية أن ينقل الباحث فى التاريخ الموقف كله بملابساته ، ثم لا بأس بأن يعلق ويستنتج ، أما أن يعتمد على المصادفات واصطياد أحداث مبتورة عما قبلها وما بعدها ، فذلك كمن يقول إن القرآن الكريم يقول (لا تقربوا الصلاة) ويكتفى بهذا مدعياً أن القرآن ينهى عن الصلاة ، مؤكداً أنه صادق فى دعواه ، فظاهر هذا المدعى صدق ، فإن هذا التعبير موجود فى القرآن ، ولكنه

مبتور بتراً يعكس المعنى ويفسده ، ومثل هذا جريمة فى حق العلم وأمانة البحث ، فقد كان ينبغى أن ينقل المعنى كاملا وهو : (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) .

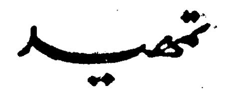
ومثل هذا البتر الذى يعكس المعنى ويفسده فعل الأب لامانس فيما زعم أنه نظرية علمية تاريخية عن الخلافة الإسلامية . وهذا المعنى كان هو مصدر الإثارة فى نفسى .

ثم كنت فى العام التالى بالفرقة الثالثة من الكلية ، وكان المنهج الدراسى يفرض على كل طالب أن يقدم بحثاً فى موضوع يختاره الطالب . فصممت على أن يكون هذا الموضوع هو مادة البحث ، وبعد ظهور النتيجة كان أستاذ المادة يسأل عن صاحب هذا البحث ، وحين استفسرت منه عن سبب سؤاله ، كانت إجابته أن جميع أساتذة التاريخ فى الكلية قرأوا هذا البحث .

وهاأنذا أقدم هذا البحث كما هو ، دون تغيير أو إضافة قط ، لا على أنه بحث متكامل ، بل على أنه محاولة طالب أن يدافع عن أمانة البحث .

والله ولى التوفيق

دكتور عبد الحليم حفنى



منى الإسلام مذ كان بأعداء لدد ، ملأت عليهم عداوته أفئدتهم ، واستقرت فى نفوسهم بغضاء متقدة ، لم تطفئها رحمة الإسلام بهم ، ولم يخب أوارها إنصافه إياهم فهبوا يناوئونه العداء من كل ركن ويشهرون عليه السيف من كل صوب . ولكن سيف الإسلام كان أمضى من سيوفهم . وسواعد المسلمين كانت أنضى من سواعدهم ، فسرعان ما تهاوت سيوف أعداء الإسلام إلى الأرض ، وانية سواعدهم ، كليلة أجسامهم .

وارتفعت راية الإسلام على أشلاء راية الروم وراية الفرس . ولكن أعداء الإسلام إن تكن سيوفهم قد فلت وأجسامهم قد وهنت فإن العداوة المتقدة فى قلوبهم لم تهن ولم تخب ، بل زادتها الهزيمة اشتعالا ، وضاعفتها الخيبة استقراراً فى النفس ، وأزيزاً فى الأحشاء . لقد أفرغ الفرس والروم إذن كل ما فى جعبتهم من سهام ، وشحذوا كل ما فى نفوسهم من عزم ليردوا الإسلام عن غايته ، ولكن هذه السهام وتلك العزيمة لم تثنه عن غايته ، ولم تصده عن هدفه فماذا يفعلون وقد فرغت أكنتهم من سهامها ، ونضبت من أفئدتهم عزائمها ؟ وعداوتهم مع ذلك لم تهن بل هى ملحة عليهم دائماً إلحاحاً شديداً متواصلا أن يثأروا من هذا الإسلام الذى حطم تيجانهم ووطىء عروشهم وغيب مجدهم

فى غور سحيق ؟ لم يبق أمامهم إلا أن ينطووا على ذوات أنفسهم يستلهمونها الكيد للإسلام ، لينالوا منه خلف حجب النفاق ما لم ينالوه تحت صحوة الشمس ، فهذه زينب بنت الحارث اليهودية تهدى إلى محمد صلى الله عليه وسلم لحماً مسموماً فيأ كله فلا يسيغه فيلفظه ويقول : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم يستدعيها فيسألها ما حملها على هذا الذى فعلته فتقول : بلغت من قومى ما لا يخفى عليك (١) وهذا أبو بكر أول خليفة فى الإسلام يقضى نحبه مسموماً بسم بطىء دسه اليهود كما تحدثنا الروايات الصحاح ، وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقضى نحبه صريعاً بيد فيروز المجوسى الذى أكل عمر كبده (٢) كما يقول بعد أن بيت أمره بليل مع نفر من هؤلاء الذين نتحدث عنهم من أعداء الإسلام منهم كعب الأحبار اليهودى والهرمزان المجوسى الذى كان منذ حين ملكا للأهواز . وجفينة النصرانى . وما كان ذلك ليروى غليلهم وما زال الإسلام منيعاً شامخ البنيان ، فليزدادوا تفننا فى الكيد للإسلام ، فهذا عبد الله بن سبأ وجماعة كثيرة من إخوانه وأنصاره يندسون بين صفوف المسلمين بعضهم يتكلف التشيع لعلى

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٠ وكذلك فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٠ ومروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) التاريخ الإسلامى عصر الخلفاء الراشدين للأستاذ محمود فياض ص ١٨٨

ابن أبي طالب مبتغياً من ذلك إثارة الناس على عثمان حيناً وإفساد عقيدة المسلمين بما يدخلونه فيها من أراجيف وأباطيل أحياناً .
وبعضهم يتكلف التدين وإغراق نفسه فى العبادة حتى يتسنى له أن يستحوذ على جماعة من المسلمين يوحى إليهم أفكاراً ومذاهب يطعن بها فى بنيان الإسلام ، وأغلب الظن أنهم أحصوا مبادىء أديانهم ، ثم أقاموا لكل مبدأ منها داعياً يدعو إليه بين صفوف المسلمين متزيياً بزيهم ، وقد يتفرق دعاة هذه المذاهب فى بقاع الإسلام بعضهم يدعو للجبر ، وبعضهم يدعو للقدر ، وبعضهم يدعو للرفض ، وبعضهم يدعو للتناسخ ، وبعضهم يدعو للرجعة ، وبعضهم يدعو للإباحية ، وهكذا حتى يطمئنوا إلى أن دينهم لم يمحه الإسلام بل هو قائم حي يتعبد به المسلمون أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ولو أحصينا هذه المبادىء المتفرقة التى دسها أعداء الإسلام بين المسلمين وجمعنا بعضها إلى بعض لوجدناها فى مجموعها تمثل الأديان التى غلبها الإسلام على أمرها .

وتتابعت العصور وتوالت القرون ، وأعداء الإسلام لا يغمض لهم جفن ، ولا يكف لحقدهم على الإسلام غرب ، لا يلمحون ثغرة إلا أسرعوا إلى ولوجها ، ولا يبصرون غرة إلا سلئوا فيها على الإسلام مداهم ، فهذا أبو الفرج العبرى اليهودى يرى

عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب بإحراق مكتبة الإسكندرية[١] هذه المكتبة التي عفت آثارها قبل أن يولد عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص بأكثر من قرن من الزمان .

وما لامانس إلا واحداً من أولئك الذين نصبوا أنفسهم لحرب الإسلام والكيد له . بيد أن أوربا أدارت نفس الأسطوانة التي دارت بين المسلمين الأولين وبين الفرس والروم . فجمعت جموعها وجاءت في الحرب الصليبية تريد أن تنال من الإسلام مالم تستطع الإمبراطورية الرومانية المسيحية في صولة مجدها أن تناله . فإذا أعيت أوربا القوة وخانها السلاح عمدت كما عمد أسلافها الأولون إلى الكيد والدس وتشكيك المسلمين في عقيدتهم وأئمتهم فدفعت بأفواج المبشرين والمستشرقين ، ينسابون بين المسلمين انسياب الأفاعي لينين وادعين ، ولكنهم لا ينون عن إفراغ سمومهم وإنشاب أنيابهم ، لا يرعى المبشرون بالدين منهم حرمة للأديان . ولا يحفظ المستشرقون للعلم منهم أمانة العلم . ولامانس جمع بين الخلتين ، فهو أب كاثوليكي فرنسي قد نصب نفسه للتبشير بدينه ، وهو مستشرق يدعى طلب العلم بالشرق والبحث عن الحقيقة بين مؤلفاته وأسفاره ، وقضى الأب لامانس ما قضى

(١) التاريخ الإسلامي عصر الخلفاء الراشدين للأستاذ محمود فياض ص ٢٣٢

بين كتب المسلمين . ثم عاد ينبئ قومه فى جزل بالحقيقة التى وصل إليها من تاريخ المسلمين ، فاشترك فى مؤتمر العلوم التاريخية الذى انعقد فى برلين سنة ١٩٠٨ وألقى بحثاً بعنوان « المؤامرة الثلاثية » ضمنه وجهة نظره فى انتخاب أبى بكر ثم استخلافه عمر ، وقرر أن ذلك إنما كان نتيجة لمؤامرة مدبرة محكمة بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح للاستيلاء على الخلافة بالترتيب بعد محمد (١) .

(١) التاريخ الإسلامى : عصر الخلفاء الأستاذ فياض ص ٧٩ .

الفصل الأول

نظرية الأب لامنس

يقول الأب لامنس : إن السياسة والأطماع غريزتان سابقتان الإيمان منذ القدم . ولقد كان أبو بكر رجلا سياسيا عمليا . اكتسب خبرته من صحبته لمحمد . وقد كانت له أطماع سياسية جعلته يفكر فى أن يكون حاكما سياسياً بعد محمد، فتألف ثالوث منه ومن عمر ومن أبى عبيدة ابن الجراح وقد كان هدف هذا الثالوث هو تنحية محمد عن بنى هاشم ثم الاستحواذ عليه .

وقد وقف هذا الثالوث حجر عثرة فى سبيل الشورى التى يدين بها العرب ، وهو السبب فى أن الشورى لم توجد فى عهد أبى بكر ولا فى عهد عمر ، ولو أن أباعبيدة كان حياً لعهد إليه عمر بالخلافة حسب شروط المؤامرة . ولقد فكر أبو بكر فى الاستفادة من ابنته عائشة إذ رأى فيها ذكاء ومهارة فى تدبير الحيل وحبك المؤمرات . فزوجها من محمد رغم أنها كانت مخطوبة لغيره ، ولقد كانت عائشة تغرى محمداً باستخلاف أبى بكر ، وإلا فبماذا يعلل نفوذها فى بيت محمد وجعله اليد العليا لها دون غيرها ؟ وقد

كان أبو بكر هو الرأس المفكر والمدبر لهذه المؤامرة ، تساعده جاسوسته الحسناء عائشة فى بيت محمد . ولقد نجحت هذه المؤامرة، فقد وضع المتآمرون محمداً داخل سياج متين منهم ، بحيث أبعدوه عن أهله كعلى والعباس ، ولذلك نجد عمر لما فرض العطاء فرض لعائشة أكثر من غيرها من نساء محمد ، وقد كان عمر هو الرجل الأول عند أبى بكر ، كما أن أبا عبيدة هو الرجل الأول عند عمر الذى عينه قائداً عاماً فى الشام بدل خالد الذى عزله . وكان سيخلفه فى الحكم لو أنه لم يمت ، فأرجع موته مسألة الحكم إلى الشورى ، وقد صرح عمر وهو صريع عندما كان يستشير الناس فى الحكم أن أبا عبيدة لو كان حياً لعهد إليه بالخلافة .

هذا ملخص رأى « لامنس » فى الخلافة الاسلامية بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

ولو أن هذا المبحث الذى تعرض له الأب « لامنس » كان مريباً أو معقداً أو محتملا للتأويل والتوجيه لكان من حق الأب « لامنس » علينا أن نلتمس له العذر وأن نعينه فيما ألبس عليه ، ولكنه مبحث واضح كل الوضوح لا يحتمل لبساً ولا تأويلا . وقد قرأ الناس هذا المبحث من التاريخ الاسلامى وما زالوا يقرأونه منذ أنشىء التاريخ الاسلامى حتى اليوم ، وفيهم من هو

أثقب بصراً وأوسع إدراكا من « لامنس » ، وفيهم من هو أحرص منه على تتبع عورات المسلمين وهفوات رجالاتهم، ولكن واحداً منهم لم تصغر فى نفسه أمانة العلم كما صغرت فى نفس الأب « لامنس » . ولم يسىء واحد منهم إلى نفسه بالتلبيس على الناس فى أمر لا يحتمل اللبس كما فعل الأب « لامنس » .

ومن حق أن أسأل الأب لامنس : هل لديه مصادر تاريخية غير هذه المصادر التى يعرفها الناس أخذ منها نظريته ؟ ليس من شك فى أنه ليس للتاريخ الاسلامى مصادر غير المصادر الاسلامية الأولى التى عاصرت صدر الاسلام أو كانت قريبة منه من أمثال سيرتى ابن إسحاق وابن هشام ، وتاريخى الطبرى وابن الأثير ، هذه الكتب التى تتبعت أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحوال رجال الاسلام لاسيما أصحاب رسول الله ، فلم تغادر من أحوالهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها ، موازنة بين أولئك الرجال بميزان دقيق لا يسمح لرجل أن يعلو عن مكانه ولا أن يرتفع عن منزله فى الاسلام ، ونرى ذلك فى كتب قد خصصت لهذه البحوث من أمثال طبقات ابن سعد والاصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر ، هذه هى الكتب التى يصدق عليها أنها مصادر التاريخ الاسلامى ، أما الكتب التى ألفت فى التاريخ

الاسلامى منذ أواخر العصر العباسى حتى عصرنا هذا فى الشرق والغرب فإنما هى بحوث تاريخية تدور فى فلك المصادر الأولى . وأما تلك الكتب التى ألفها بعض الشيعة لتعزيز مذهبهم والتى اعتمد عليها الأب « لامنس » فى نظريته[1] فليست مصادر ، ولا هى تاريخية بالمعنى الصحيح ، أما أنها ليست مصادر فلأنها ألفت فى عصر متأخر بعيد عن الأحداث التى وقعت فى صدر الاسلام ، وأما أنها ليست تاريخية بالمعنى الصحيح للتاريخ فلأنها كتب سياسية مذهبية . ولم يقصد بها إلى تحقيق الأحداث التاريخية والوقوف على معالمها وإنما قصد بها الوصول إلى أهداف مذهبية سياسية خاصة . ومن الواضح أن هذا القصد حمل المؤلفين على أن يحوروا عن طريق الحق إلى طريق الأغراض والأهواء .

ليس لدى الأب « لامنس » إذن مصادر تاريخية ينبغى أن يعتمد عليها إلا هذه المصادر الاسلامية الأولى وإلا لما كلف نفسه مشقة الاستشراق ، فأى هذه المصادر مع حرصها على تحرى الحقيقة ومع حرص بعض مؤلفيها على النيل من حق أبى بكر

(١) ذكر الأستاذ محمود فياض فى عصر الخلفاء ص ٨٦ أن لامنس استوحى نظريته من كتب غلاة الشيعة وعلى الأخص كتاب درر البحار المصطفى لمرتضى المرتضى .

وصاحبه فى الخلافة بالقياس إلى علىّ ، نقول أيها أشار من قريب أو بعيد إلى ما تحدث عنه الأب « لامنس » ؟ .

ولقد قرأ الناس فى القديم والحديث من المسلمين وغير المسلمين هذه الكتب فلم يفهموا منها شيئاً مما فهمه الأب « لامنس » فلم ذلك ؟ ألأن فى عقولهم وأفهامهم قصوراً ؟ أولأن الأب « لامنس » يرى ما لا يراه الناس ويفهم ما لا يفهمه الناس ؟

وحيث لم يكن فى حديث المصادر التاريخية عن الخلافة ما يوحى بشكٍ أو يومىء بريبة . فمم استوحى لامانس إذن نظريته ؟ ألأنه وجد فى تاريخ حياة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وفى سيرتهم ما أرابه فيهم ودفعه إلى الشك فى سلوكهم يوم السقيفة ؟ .

والذى لم يقرأ التاريخ الاسلامى أو قرأه فلم يفهمه حق فهمه أول ما يتبادر إلى ذهنه حين يقرأ وجهة نظر الأب « لامنس » هو أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح رجال قد ملأ الطامع عليهم نفوسهم وتملكتهم رغبة جامحة فى أن يثبوا إلى الملك والسلطان ورأوا بذكائهم وبعد نظرهم أن محمداً سيضحى ذا ملك واسع فعقدوا عزمهم على أن يسعوا إلى هذا الملك فيستحوذوا

عليه دون المسلمين فاتخذوا من الدين ستارا يخفى أطماعهم ويذود عنهم الشبهات حتى يتسنى لهم أن يبلغوا ما يحلمون به . فهم متدينون فى ظاهر أمرهم ، طامعون فى دخيلة نفوسهم ، وهـــذه عائشة جاسوستهم الحسناء فى بيت محمد ، تمهد لهم ، وتغرى محمداً بما يملونه عليها . هذا ما يبغى الأب الكاثوليكى أن يقنع الناس به من وراء وجهة نظره هذه ، وثمة أمر آخر ، لا يغيب عن ذهنه الأريب ، وهو أن أبا بكر وعمر عنوان المسلمين ومفخرتهم ، فإذا كان هذا حالهم فكيف بمن دونهما من المسلمين؟ وإذن فالذين دانوا بالاسلام ليسوا إلا شرذمة من ذوى الأغراض والأطماع ، لا يعرفون من المبادىء والمثل إلا بمقدار ما يصلون إلى هذه الأغراض .

على رسلك يا مسيو لامنس :

فلو قد كشفت عن ذات نفسك ، وأظهرت ما تريد أن تهدف إليه لكان أحفظ لعرضك ، ولقلنا إنه رجل غلبه التعصب لدينه وجنسه فهو يقول ما يقول ، ولكان خيراً لك من أن تندس بين صفوف العلماء والباحثين فتسىء إليهم إساءة قد لا يغفرونها لك .

وأعود إلى التساؤل مرة أخرى فأقول : ما الذى أوحى إلى الأب « لامنس » بوجهته هذه ؟ ألأنه وجد فى سيرة أولئك النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرابه فى تصرفهم ؟ إن كان كذلك فلنعد معاً يامسيو لامنس إلى مراجع التاريخ نسألها عن إسلامهم ، وعن تاريخهم فى الاسلام .

الفصل الثاني

(الثلاثة والإسلام)

فأما أبو بكر : فتتفق روايات التاريخ على أنه كان قبل الإسلام تاجراً . وكان من الرهط [1] العشرة الذين انتهى إليهم شرف قريش في الجاهلية ، فكان يحمل الديات والمغارم ، ولم يكن في خلق أبي بكر ما تخيله لامنس من الروغ والمخادعة والنفاق ، بل كان كريم النفس مستقيم الخلق ، صافي القلب ، وهذه رواية البخاري في صحيحه أن أبا بكر حين أراد الهجرة من أذى قومه لقيه ابن الدغنة زعيم قبيلة القارة خارجاً من مكة ، فقال : إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج ، إنك لتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر وتصدق الحديث ، وتصل الرحم .

وكان رغاباً عن الدنايا ، عفيف النفس ، وقد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية [2] .

وكان رقيقاً رحيم القلب يأسى للبائسين ، ويألم للمستضعفين ، فها هو ذا في صدر الإسلام يشق عليه أن يرى الرقيق يعذبون

(١) أشهر مشاهير الإسلام ج ١ ص ١٠

(٢) » » » ج ١ ص ١٢

فيسعى فى إعتاقهم متكلفاً ذلك فى ماله ، فقد أخرج الطبرانى عن عروة أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله . ولم يكن يرجو على الخير جزاء من الناس ؛ فقد كان يعتق العجائز والنساء إذا أسلمن ، فقال أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالا جلدا يقومون دونك ! فقال يا أبت إنما أريد وجه الله . وقد قلت إن الذى لا يعرف التاريخ الإسلامى ثم يقرأ نظرية لامنس يفهم أن أبا بكر دخل فى الإسلام ليصل إلى الملك والسلطان وقد تكون هذه الشبهة مستساغة لو أن أبا بكر أسلم وفى المسلمين شوكة يؤمل معها أن يكون لهم ملك . ولكن المؤرخين لا يختلفون فى أنه أول من أسلم من الرجال ، بل أن علاقته بمحمد قديمة وثيقة منذ الشباب ويؤكد ابن الأثير فى أسد الغابة وابن حجر فى الإصابة هذه الحقيقة « كانا صديقين حميمين لا يفترقان فى أغلب شأنهما[1]، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا آمن به وصدقه عن تجربة فى صدقه واقتناع به ، وفى رأيى أن أبا بكر إنما كان ممتازاً عن الصحابة فى حبه للرسول وتضحيته من أجله تأثراً بهذه الصداقة القديمة ، وكذلك حب الرسول له وإيثاره إياه إنما كان من بعض نواحيه تأثراً بهذا ، فهو أول الناس إسلاماً حتى قال عليه السلام : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت

(١) التاريخ الاسلامى ، الأستاذ فياض ص ٨٢

له كبوة غير أبي بكر ، وهو أحرص الناس على الزود عن صديقه وفدائه بنفسه ، تحدث على كرم الله وجهه فى رثاء أبى بكر فقال : أتدرون من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت ، قال: أما إنى ما بارزنى أحد إلا انتصفت منه ، ولكن أشجع الناس أبو بكر رحمه الله ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركون يؤذونه بمكة وما أحد منا يجرؤ أن يصل إليه حتى أقبل أبو بكر فأخذ يضرب هذا ويدفع هذا ، وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ وهو يقوم دون عريش النبى صلى الله عليه وسلم فى بدر يذود عنه ، ويصاحبه فى هجرته المحفوفة بالمخاطر من كل جانب . ولا يفارقه طوال حياته فى شدة أو أزمة من الأزمات . ويرخص عليه ماله فى نصرة صديقه حتى قد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم أنفق منها فى الإسلام خمسة وثلاثين ألفاً . ولقد أنفق فى جيش العسرة كل ماله فلم يبق لأهل بيته حتى اليسير من القوت ، فإذا سأله النبى مشفقاً : فماذا تركت لأهلك يا أبا بكر ! أجاب مطمئناً قرير العين : تركت لهم الله ورسوله .

فكل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يحبونه ، ولكن أبا بكر أشدهم له حبا ، وكل أصحابه يضحى من أجله ، ولكن أبا بكر أشدهم تضحية وأكثرهم بذلا ، وما هذا الفارق بينه وبين غيره إلا من أجل هذه الصداقة القديمة الكريمة بينه وبين محمد عليه السلام ،

فهو مظهر من مظاهر الوفاء فى خلق أبى بكر ، وكان هذا المعنى متبادلا بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان عليه السلام يحب أصحابه ، وكان أبو بكر أشدهم إليه حباً ، فهو يقول للناس بالمسجد فى مرضه الذى قبض فيه « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه ، وإنى لو كنت متخذاً خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا » ولم يكن يغضب لأحد غضبه لأبى بكر ، ويشير إلى هذه الصداقة القديمة مذكراً بها الناس ذات مرة . فقد كان بين أبى بكر وعمر بعض الشيء ، فذهب أبو بكر يستعدى الرسول صلى الله عليه وسلم على عمر ، فغضب النبى له أشد الغضب ، وأخذ يقول هذه الكلمة البليغة المؤثرة : « هل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ »[1] فقد دخل أبو بكر إذن فى الإسلام مستيقنا به ، محتملا فى سبيله ما لا يحتمله سائر الناس ، مصاحباً للنبى صحبة المتفانى فى حبه والوفاء لصداقته ، ومواقفه فى الإسلام أشهر من أن تخفى على دارس للتاريخ الإسلامى كالأب لامنس ، فهل يستطيع الأب لامنس أن يضع إصبعه على حادث ولو يسير من تاريخ أبى بكر كله فى الجاهلية أو الإسلام ليقول إن هذا الحادث يدل على أن أبا بكر كان طامعاً كما يزعم ، ولم يكن متفانيا فى خدمة الإسلام كما يقرر التاريخ .

---

(١) صحيح البخارى

وأما عمر بن الخطاب : فنستطيع أن نلخص لحياته موجزاً قصيراً ، هو خلاصة ما اتفقت عليه مراجع التاريخ الإسلامى إزاء جاهليته وإسلامه ، فهو من بنى عدى وأخواله بنو مخزوم. وكان من العشرة الذين انتهى إليهم الشرف فى الجاهلية .فكانت إليه السفارة بين قريش وغيرها ، وكان تاجراً فى الجاهلية ، وظل تاجراً حتى ولى الخلافة فلم يجد فى وقته متسعا لها ، وكان منذ نشأته معروفا بالقوة والصرامة ، ولعله قد ورث ذلك من بعض خشونة أبيه وجفوته ، فقد كان الخطاب فظاً جافى الطبع ، أخرج ابن عساكر عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه ، قال : «كنت مع عمر بضفيان (جبل) فقال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظا ، فكنت أرعى أحيانا وأحتطب أحيانا ، فأصبحت أضرب الناس ليس فوقى أحد إلا رب العالمين » يعنى بذلك أنه بلغ من شدة بطشه أن الناس أخذوا يرهبونه وأصبح لا يرى أحداً له قرنا أو كفؤاً .

وهو صدوق يحب الحق والجهر به ، فهو شخصية قوية قوتها فى حدود الحق والتشبث به ، لذلك كان المسلمون أول أمرهم أحوج ما يكونون إلى مثل هذه الشخصية ، يتجنبون قوتها عليهم ، وينتفعون بحبها للحق والجهر به ، ولذلك دعا النبى ربه فقال « اللهم أعز

الاسلام بأحب العمرين إليك : عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام » ، ولكن عمر بن الخطاب كان أحب إلى الله من عمرو بن هشام ، فشرح الله صدره للإسلام ، ودخل فى الإسلام والمسلمون حينئذ تسعة وثلاثون[1] رجلا وثلاث عشرة امرأة ، وكان سنه ستة وعشرين عاماً ، فلم يسلم عمر إذن طامعا ، وإنما أسلم حين شرح الله صدره للإسلام ودعا له النبى بالهداية ، وتحدثنا الروايات الصحيحة التى لا يكاد المؤرخون ينازعون فيها عن طريقة إسلام عمر ، وهى طريقة منطقية تجرى مع الطبع والمعقول وتناسب خلق عمر ، قال عمر[2] للناس : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى ؟ قالوا : نعم ، قال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينا أنا ذات يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة ، إذ لقينى رجل من قريش فقال : أين تذهب ياابن الخطاب ؟ أتزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال أختك قد صبأت ، قال : فرجعت مغضبا . وقد كان رسول الله يجمع الرجل والرجلين عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وكان قد ضم إلى زوج

(١) أشهر مشاهير الإسلام ص ١٨٧

(٢) تاريخ الاسلام : الخلفاء الراشدون . الشيخ عبد الوهاب النجار ص ١١٤ ناقلا عن أسد الغابة بسنده .

أختى رجلين ، قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب ، قال : وكان القوم جلوسا يقرأون القرآن فى صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة حين سقطت من أيديهم ، فقامت المرأة ففتحت لى ، فقلت يا عدوة نفسها قد بلغنى أنك صبوت قال : فأرفع شيئا فى يدى فأضربها فسال منها الدم ، فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل ، فقد أسلمت ، قال : فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فإذا كتاب فى ناحية البيت ، فقلت ماهذا ؟ أعطنيه ، قالت : لا أعطيك ، لستَ من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه إلا المطهرون ، قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه ، فإذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ، ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها : (سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) قال : فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم تراجعت إلى نفسى حتى إذا بلغت (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت إلى قوله (إن كنتم مؤمنين) قال : فقلت : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى وحمدوا الله عز وجل ثم قالوا : يا ابن الخطاب أبشر فإن رسول الله دعا يوم الاثنين فقال : (اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين) ، فلم يفكر عمر إذن حين دخل الاسلام فى مطامع وآمال ، وإنما دخل الاسلام حينما شرح الله صدره للإسلام بدعوة الرسول عليه السلام ، فرأى فيه الحق ، والحق أحب شىء إلى عمر . ولم تكن حال المسلمين حين أسلم عمر تغرى بالآمال والمطامع ، وأى أمل يعقد على قلة قليلة لا تبلغ الأربعين رجلا يفتنون فى دينهم دائما ويعذبون فى ذات الله حين يمسون ، ويعذبون حين يصبحون ! ولم يجلس عمر — مجلس الطامع — على حرف وطرف من الدين ، إن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، بل استيقن بأن الاسلام حق ، فآمن به ، ثم رأى إخوانه يعذبون فى هذا الإسلام ، ويؤذون ، وهو لا يعذب ولا يؤذى ، قد تحاشاه المشركون رهبة وخوفا ، فيشق عليه أن يعذب إخوانه ويظل هو ناعما قرير العين ، فيأبى إلا أن يشاركهم ما يلقونه من فتنة وأذى ، فيعمد إلى عمرو بن هشام ذاك الذى تولى كبر الشرك بمكة ونصب نفسه لفتنة المسلمين والتنكيل بهم ، فذهب إليه يطرق بابه فخرج عمرو بن هشام فإذا عمر بن الخطاب يقول له : أتعلم

أنى دخلت فى الإسلام(١) ؟ وانتظر عمر أن يناله أبو جهل بالأذى، ولكن أبا جهل تركه ودخل بيته وأغلق بابه ، ثم ذهب عمر إلى مجمع قريش بالحجر ومعهم أبو جهل فأعلمهم عمر بإسلامه فقاموا يضربونه ويضربهم ، فقال أبو جهل قد أجرت(٢) ابن أختى فتركوه ، وذهب عمر لا يتعرض له أحد بالأذى ، ولكنه عاد فأنكر أن يؤذى المسلمون دونه فرد على خاله جواره .

وأما أبو عبيدة : فهو أبو عبيدة بن الجراح من بنى فهد ابن مالك ، أمه أميمة بنت غنم دخلت فى الاسلام(٣) ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان من سادة قريش فى الجاهلية . ولم ير الناس فى خلقه اعوجاجاً ولا فى سلوكه التواء ، وإنما هو سيد كريم النفس مستقيم الخلق . بعيد الهمة وهو من أوائل السابقين إلى الإسلام . أخرج الحافظ بن عساكر فى تاريخه قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة ابن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض

(١) أشهر مشاهير الاسلام ج ٢ ص ١٨٨

(٢) ويذكر الأستاذ فياض أن الذى أجاره هو العاص بن وائل السهمى ص ١٥٤ التاريخ الاسلامى .

(٣) أشهر مشاهير الاسلام ج٣ .

عليهم الإسلام فأسلموا فى ساعة واحدة ، وذلك قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها[١] ، ومعنى أن أبا عبيدة بن الجراح أسلم قبل دخول النبى دار الأرقم أنه أسلم فى بدء الإسلام ، لأن النبى دعا فى دار الأرقم ولم يمض على بدء الإسلام وقت وجيز . ولعل المسلمين حين أسلم أبو عبيدة ومن معه لم يكونوا يتجاوزون بضعة عشر رجلا فإن المسلمين كانوا حين أسلم عمر تسعة وثلاثين رجلا ، وعمر أسلم والنبى فى دار الأرقم ، وحيث إن أبا عبيدة أسلم قبل دخول الرسول دار الأرقم ، فلاشك أنه أسلم قبل عمر وبالتالى فإن المسلمين حين إسلامه كانوا أقل مما كانوا عليه عند إسلام عمر ، وأعنى من ذلك أن أبا عبيدة أسلم وليس فى المسلمين عدد ولاشوكة تجعل أباعبيدة يتوسل من دخوله فى الإسلام طمعاً أو ملكا .

وأما حياة أبى عبيدة فى الاسلام فهى حياة تشهد له بتغلغل الإيمان فى قلبه تغلغلا ضحى فى سبيله بكل شىء ، وجعله يؤثر الإيمان على كل شىء ، وحتى على أدنى قرابته إليه فقد روى الحافظ والجزرى وابن عساكر فى تاريخه أن أبا عبيدة حين كان ببدر جعل أبوه يتعرض له وهو يحيد عنه فلما أكثر أبوه التعرض له أهوى عليه فقتله فنزلت الآية الكريمة (لا تجد قوما

---

(١) أشهر مشاهير الاسلام ج ٣ ص ٥٠٥

يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ... الآية)[١] .

وقد كان شديد الحب لرسول الله ﷺ لا يتردد فى أن يفديه بنفسه إذا لزم الفداء ، فقد ثبت مع النبي يوم أُحد حين تراجع المسلمون ، ونزع حلقتى المغفر حين دخلتا فى وجنتى النبي عليه السلام فسقطت ثنيتا أبى عبيدة وصار أهتم ، فما رؤى قط أحسن منه هتما[٢] . وقد شهد المشاهد كلها لم يتخلف عن واحدة منها ، وكان من أحسن الناس خلقاً وأرحمهم حلما فعن عبد الله بن عمر قال : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها أحلاما وأثبتها جناناً ، إن حدثوك لم يكذبوك وإن حدثتهم لم يكذبوك ، أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح .

هـــذه نبذة من حياة أولئك النفر من أعلام أصحاب رسول الله ﷺ . وإنما تعرضت للحديث عن حياتهم الأولى لأنفى كل احتمال يفرضه العقل فى وجود هذه المؤامرة التى يدعيها عليهم الأب « لامنس » ولأنه يشير إلى أن المؤامرة قديمة حيث

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام ج ٣ ص ٥٠٦

(٢) « « « ج ٣ ص ٥١١

تزوج أبو بكر عائشة من أجل المؤامرة وأول احتمال يفرضه العقل (على فرض وجود المؤامرة) أنهم دبروا مؤامرتهم قبل دخولهم الاسلام ثم أسلموا تمهيداً للوصول إلى هدفهم وهذا الاحتمال ينفيه إجماع الروايات على أنهم أسلموا فى أوقات متفرقة . كما أسلفت الحديث ، ولم تحدثنا رواية واحدة عن علاقة بين هؤلاء الثلاثة فى الجاهلية .

الفصل الثالث

الثلاثة والأطماع

والاحتمال الثانى أن يكونوا قد دخلوا فى الإسلام طامعين .

وهذا الاحتمال ينفيه إجماع الروايات أيضا على أنهم أسلموا والمسلمون قلة مستضعفة تعيش فى حال من الذل والهوان لا تغرى الطامعين بالانضمام إليهم . وإنما تغرى الذين يعشقون الحق فيضحون من أجله بكل شىء ويمقتون الباطل فيحتملون فى عداوته كل شىء ، كما كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة .

وقد أسلفت بعض ذلك فى حديثى عنهم ، أما الطامعون المؤملون فقد تريثوا حتى وجدوا راية الإسلام تعلو وجيوشه تزحف ، فانسابوا إلى الإسلام كما فعل أبو سفيان وأضرابه .

وقد يقول الأب لامنس إن هذه الأطماع تولدت فيهم بعد دخولهم الإسلام حينما رأوا مجد الإسلام يأخذ فى العلو ، فأقول له : إنك تقول إن أبا بكر زوّج عائشة من محمد من أجل هذه الأطماع ، ومعنى ذلك أن المؤامرة سابقة على زواج عائشة ، والثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم تزوج بعائشة فى العام الذى هاجر فيه

إلى المدينة ، وخطبها قبل ذلك بثلاث سنين كما سيأتى فى تفصيل ذلك ، والمسلمون فى ذاك الوقت لم يكونو يتجاوزون بضع عشرات من الرجال المستضعفين ، ولم تكن لهم حينئذ أدنى شوكة أو قوة تبعث على الآمال والمطامع ، حتى أنهم لم يستطيعوا الإقامة بمكة فهاجروا ، وقد يقول الأب لا منس ، إن هؤلاء الثلاثة كانوا من الذكاء وبعد النظر بحيث كانوا يدركون أن سيأتى على الإسلام يوم تكون له فيه الكلمة العليا ، لاسيما وأن محمداً كان يقول لهم من بدء الاسلام « والله ليتمن[1] هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » وسنناقش ذلك . والأب « لامنس » يمهد لحديثه عن أطماع أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بقوله : « إن السياسة والأطماع غريزتان سابقتان للإيمان منذ القدم » .

وأجيب عن ذلك مبتدئا بمناقشة هذه المقدمة فأقول للأب « لامنس » : ماذا تعنى بالسياسة ؟ أتعنى مجرد المعنى الذى يفهم اصطلاحا من مقتضى السياسة . وهو تنظيم الفكر وبعد النظر وتقدير العواقب ؟ أم تعنى بالسياسة لازمها وهو السيطرة والتسلط ؟

---

(١) صحيح البخارى من حديث أبى ذر : ذهبنا إلى رسول الله وهو جالس فى ظل الكعبة نستنصره على المشركين : فقال : لقد كان يؤتى بالواحد ممن قبلكم فيمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب فما يصده ذلك عن دينه . الحديث .

وما أظن « لامنس » يقصد المعنى الأول . فإنه يلزم من كون السياسة (بمعنى بعد النظر وتقدير العواقب) غريزة فى كل إنسان أن الناس جميعا أذكياء واسعوا التفكير ، ليس فيهم ضعاف عقول ولا معتوهون . وهذا الأمر لا يقصد إليه عاقل . فإن كان الأب « لامنس » يقصد بالسياسة المعنى الثانى وهو السيطرة والتسلط كان قوله (السياسه والأطماع) شيئاً واحداً لأن حب التسلط نوع من أنواع الطمع ، غاية الأمر أن التسلط خاص بالرئاسة والسيطرة ، والطمع عام فيها وفى كل رغبة تجول فى نفس الانسان؛ فهما إذن ليستا غريزتين كما يقول الأب لامنس بل غريزة واحدة هى التى يعبرون عنها بالآنانية أو الذاتية، وهى حب الشخص لذاته أو تحصيل المنفعة لها كلما وجد إلى المنفعة سبيلا .

ويقول الأب لامنس : إن هذه الغريزة (وهى الذاتية) كما قلنا سابقة على غريزة الايمان . ومع أن معظم العلماء والباحثين يقولون إن الايمان أظهر الغرائز فى الانسان ، وتأثر الانسان بغريزة الايمان أقوى من تأثره بالغرائز الأخرى ، مع هذا فإنى أؤيد الأب لامنس فى أن غريزة الذاتية سابقة على غريزة الايمان ، بل على كل غريزة أخرى فى الانسان . فإننا نلاحظ أن هذه الغريزة تولد مع الطفل قبل أن يشعر بالايمان ، بل قبل أن يتولد فيه العقل والتفكير . ونستطيع أن نقول إن غريزة الذاتية غريزة

حيوانية عامة فى الانسان وغير الانسان من صنوف الحيوان ، أما الدين فإنه غريزة وجدانية إنسانية مقصورة على الانسان فحسب ، والغرائز كلما كانت أعم كانت أسبق فى التكوين ، وأكثر تأثيراً فى حياة صاحبها . والإنسان يمر بمرحلة حيوانية خالصة هى الأيام الأولى أو الأسابيع الأولى بعد ولادته ، يكون فيها كسائر الحيوان الذى لا يعقل (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) هـــذا « على الاطلاق » ومع ذلك لا تفارقه غريزة الذاتية فى هذه الأوقات الأولى ، فهو يدفع عن نفسه الأذى بدون شعور كحركة اليد إذا مستها النار . فإنها تبتعد عن النار بدون شعور ، ويميل إلى طعامه وحاجته بدون شعور أيضاً ، كبكائه عند الجوع ويفعل ذلك كل حيوان أيضاً بأسلوبه الخاص .

فحب الخير للذات وطلب النفع لها غريزة أصيلة فى كل حيوان . ولكن هذا الخير وهذه المنفعة تتكيف وتتحدد حسب الامكانيات الجسمية والعقلية فى الذات . فالنملة مثلا حينما تجوع لا تطلب أكثر من ذرة أو ذرات ، لأن إمكانيات جسمها لا تطلب أكثر من ذلك ، بينما يطلب الفيل أو الجمل حين يجوع طعاماً كثيراً لأن تكوين جسمه يطلب ذلك .

والرجل الصغير العقل لا يطلب من حياته أكثر من أن يعيش مكسو الجسم ملء البطن ، بينما لا يقنع ذوو العزائم القوية والعقول الكبيرة دون الآمال الواسعة والغايات العظيمة ، وإلى بعض ذلك يشير المتنبي فى قوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

ونستخلص من هذا أن الذاتية أسبق الغرائز فى الإنسان ، وأقواها تأثيراً عليه ، وتوجيها لسلوكه . وأن الإيمان لايستطيع أن يقاوم هذه الغريزة إلا إذا بلغ من القوة حداً يسيطر فيه على تفكير الانسان ، ويملأ قلبه ، ويمتزج بنفسه . فهل بلغ إيمان أبى بكر وعمر وأبى عبيدة هذا الحد فتغلب على غريزة الذاتية فيهم؟ أم لم يبلغ إيمانهم هذا الحد فتغلبت عليه غريزة الذاتية والمطامع كما يقول الأب لامنس؟ وهــذا موضع لا يقنع فيه التأليف والإنشاء ، ولا تغنى فيه إلا الحقائق التى لايجد العقل فيها مجالا للإنكار . فلنعد إلى التاريخ نسأله : هل استطاع إيمان هؤلاء الثلاثة أن يكبح غريزة الذاتية والمطامع فيهم أم لم يستطع . ويجيبنا التاريخ فيقول :

أما أبو بكر فكان فى الجاهلية تاجراً ذا ثراء عريض ، وكان مقتضى الذاتية والطمع أن يحافظ على هذه الثروة وأن ينميها .

ولكن إيمانه تغلب على هذه الغريزة ، فإذا هو ينفق معظم ماله في أول الاسلام ، فقد بلغ رأس ماله حين دخل الاسلام أربعين ألفا أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبي عليه السلام [١] ، ثم أنفق كل ماله بعد ذلك في جيش العسرة حتى قال له النبي فماذا تركت لأهلك ، قال تركت لهم الله ورسوله . ولم يكن في الناس أجود منه راحة ولا أسرع منه إلى الانفاق هو وعثمان بن عفان .
ولقد كان حقيقاً بالثراء العريض ميسراً له ، ذلك لو أن نفسه نازعته إليه ، فهذه الغنائم تنهال على المسلمين من كل صوب كأنها أمواج البحر ، فلم تتعلق نفسه بشيء منها ، وإنما انصرف عنها قانعاً بالعيش الكفاف كما يعيش من هم دونه ثراء ومكاناً ، وحسبه في هذا المعنى ما ترويه عائشة من أنه أشار حينما حضرته الوفاة إلى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت ، ولم يكن يستبيح لنفسه من مال المسلمين شيئاً ؛ فهذا الطبري يخرج أن أبا بكر حين حضرته الوفاة قال : انظروا كم أنفقت منذ وليت بيت المال فاقضوه عني ، فوجدوا مبلغه طوال خلافته ثمانية آلاف درهم ، ولم تحدثه نفسه يوما بولاية أو إمارة أو خلافة ، وإنه ليقول فيما صححه الحاكم « والله ما كنت حريصاً

(١) مشاهير الاسلام ج ١ ص ١١

على الإمارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية . ولكنى أشفقت من الفتنة ، ومالى فى الإمارة من راحة . لقد قلدت أمراً عظيما مالى به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله » . ولقد كان على جلاله ومنزله فى الإسلام يرى من هم دونه يتولون الإمارة فلا يرغب هو فيها ولا تحدثه نفسه بشيء منها ، ولقد يكون جندياً عادياً تحت إمرة من لا يقاس بشيء من فضله وعلو قدره فى الاسلام كما كان جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص وأسامة بن زيد قبل أن يقبض النبي عليه السلام، فلا ينكر من ذلك شيئاً ، ولا تحدثه نفسه بشيء . ويستبين لنا الأمران معاً ، زهده فى الدنيا ورغبته عن الإمارة وأنه إنما قبل الخلافة إخماداً للفتنة وإصلاحاً لأمر المسلمين قوله فى مرض موته « إنى أطعت أمانة هؤلاء حين كان النكوص إضاعة والخذل تفريطاً . فشهيدى الله ما كان يحتليني إياه . فتعلقت بصحفهم وتعللت بدرة نعجتهم فأقمت صلاتى معهم لا مختالا أشراً ولا مكاثراً بطراً . لم أعد سد الجوعة وورى العورة . وقوانة القوام ، حاضرى الله من طوى ممض تهفو منه الأحشاء وتجب له المعى فاضطررت إلى ذلك اضطرار المريض إلى المعيف الآجن ، فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم ونعجتهم ورحاهم ودثارة ما فوق اتقيت بها

أذى البرد ودثارة ما تحق اتقيت بها ثرَّ الأرض ، كان حشوها قطع السعف[1]، وأبو بكر ليس بالمكذب فى كلامه وهو الصديق، وعلى من يكذب والناس يعلمون من حاله كل شيء؟ ولو قد كذب فى حرف لوجد ألف لسان ترد عليه كذبه ، فقد عاش أبو بكر إذن محروما من متعة الدنيا مع تمكنه منها زاهداً فى الإمارة مع تيسرها له ، مفنياً ماله وذاته فى حبه لله ولصديقه رسول الله .

وأما عمر بن الخطاب فيقول عنه التاريخ : إنه كان فى الجاهلية عظيما فى قومه مطاع الأمر مرهوب الجانب مرموق المكان — ولكن حبه لذاته ، وحرصه على سعادته فى قومه لم يصمد أمام إيمانه القوى العميق ، فاندفع إلى الإسلام معرضا عن ذلك كله مؤثراً أن يكون رجلا كسائر المسلمين، يؤذى كما يؤذون ، ويرغم على أن يترك ماله ووطنه وأهله ، ليهاجر كما يهاجر المسلمون ، ويحدثنا التاريخ أنه كان فى الجاهلية تاجراً . وكانت التجارة وما فيها من ربح تقتضيه أن يحرص على سيادته فى قومه وحسن اتصاله بهم ، حتى تنفق هذه التجارة وتتسع جوانبها ولكن إيمانه زهّده فى ذلك كله ، فآثر أن تبور تجارته وأن ينضب معين ماله ،

---

(١) مشاهير الإسلام جـ١ ص٩٤

فعاش فقيراً متقشفاً كما عاش غيره من فقراء المسلمين . وإن التاريخ لتتواتر رواياته عن هذا التقشف الذى ألزم به عمر نفسه، حتى يأخذنا من ذلك عجب غير يسير ، فلم يكن زهد عمر عن عوز وفاقة ، وما مثله بالذى يعجز عن جمع المال لو أراد ، وما أكثر ما كان يدنو منه المال فينأى هو عنه نأياً شديداً ، وما أكثر ما كان يعرض له النعيم ولين العيش فينفر منه نفاراً شديداً ، وهل أقدر على النعيم والترف من خليفة واسع الملك تتدفق عليه الغنائم من كل صوب ، وتنهال عليه أموال الخراج من كل وجه ، ولكنه يأبى أن يزيد عطاؤه منها على أفقر الفقراء ، بل يأبى إلا أن يكون أظهر الناس فقراً وأشدهم حرماناً .

فها هو ذا يلبس إزاراً فيه إثنتا عشرة رقعة [1] وهو خليفة المسلمين . وها هو ذا يحرم على نفسه الإدام عام الرمادة ويعيش على لقيمات جافات حتى يسود لونه ويعرورق وجهه ويسوء حاله ، فيشفق عليه الناس ، فيكلمونه فى ذلك ويلحون عليه أن يرفق بنفسه فإن حياته حياة للأمة، ولكنه يغضب ويقول بئس الوالى أنا إذا شبعت وجاع الناس . ولم إذن كنت إماماً إذا لم يمسنى

(١) مشاهير الإسلام ج ٢ ص ٢٠٧ ٤ نقلا عن المناقب رواية الحسن فى المناقب.

ماسبهم ، إذا كنت في منزلة تسعني وتعجز عن الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة ». [1] .

وكان يرى نفسه مسئولا عن أهل بيته أمام الله ، فهو يلزمهم ما ألزم به نفسه من الحرمان والتقشف ، وأنه ليرى فتاة تمايل من الجوع فيسأل عنها ابنه عبد الله : ابنة من هـــذه ؟ قال إنها ابنتي ! إنك تحبس عنا ما في يدك فيصيبنا ما ترى ! فقال عمر : بيني وبينكم كتاب الله . والله ما أعطيكم إلا ما فرض الله لكم . أتريدون أن أعطيكم ماليس لكم فأعود خائنا ؟ [2] ولقد كان عمر كما كان أبو بكر عزوفاً عن الإمارة ! يرى فيها تبعات ثقالا ، وأحمالا جساماً ، فهو يعرض عنها ، ولا تحدثه نفسه بالتطلع إليها ، وكم ولى النبي عليه السلام أناساً الإمرة فلم يكن عمر واحداً منهم بل كان يؤثر دائماً أن يكون جندياً مدافعاً عن رسول الله يقوم دونه بسيفه فلا يأذن للسان أن يؤذى الرسول في سلم ، ولا يسمح لسيف أن يمتد إليه في حرب ، ولا يأبى أن يكون جندياً تحت إمرة من هم دونه سناً ومقاما ، كما كان مع عمرو بن العاص وأسامة

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص٣٨٨ والطبرى جـ ٣ ص٢٩١ والبداية جـ ٧ ص٩٠ سيرة عمر لابن الجوزى ص ٤٤ وما بعدها فياض ص ١٥٧

(٢) رواية الحافظ بن كثير — البداية جـ ٣ ص ١٣٦

ابن زيد ، ولقد قبل عمر الخلافة لا حباً فى الإمرة ، ولا رغبة فى السلطان . وإنما قبلها كبحا للفتنة التى كان يحدثهم النبى انها ستكون بعده .

فقبل الخلافة ودرته لا تفارق يده ! فلا تكاد الفتنة تطل من جحرها حتى تقرعها درة عمر فترتد فى وجل إلى وكرها ، وإنا لننظر إلى عمر وخلافته فيروعنا منظره . فهو ملك لا كَكل الملوك وسلطان ليس كمثل السلاطين . خليفة لا يقر عينه أن يظل يومه مكافحاً فى خدمة رعيته مجتهداً فى إقامة العدل بينهم . بل يأبى إلا أن يكون ليله كنهاره فيحرم على نفسه راحة النوم فى جوف الليل وسكون الظلام متفقداً أحوال المسلمين حتى يأتى ذات ليلة موضعاً يسمع فيه أنيناً ويرى به رجلا فقيراً قد انقطع به الطريق ، فيسأله عمر فيقول الرجل إنها زوجى تضع حملها ، فيسرع عمر عائداً إلى بيت المال فيخرج غرارة من الدقيق ، ثم يريد رفيقه أن يحملها عنه فيأبى عمر قائلا : أتحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ ويحمل الخليفة غرارة الدقيق على كتفه ويأمر زوجه أن تذهب معه حتى يأتى موضع النفساء فتدخل عليها زوجه أم كلثوم تعينها على النفاس ، ويوقد هو على القدر يعد للمرأة طعامها

وينفخ فى النار حتى يخرج الدخان من لحيته . فأى ضمير يسمح لصاحبه أن يقول إن مثل هذه النفس قد غلب فيها الطمع وحب السلطان على الإيمان والتدين ؟

وليس فى هذا الحديث القصير استيعاب لما يرويه التاريخ عن زهد أبى بكر وعمر وقوة إيمانهما الذى لم يسمح لغريزة الذاتية أو الأنانية أن لا تصحو لحظة من رقادها أو أن تطل يوماً من سجنها، ليس فى هذا الحديث استيعاب لهذا النحو من حياتهما فإن ذلك أوسع من أن تحيط به هذه الصفحات القلائل ، وأظهر من أن ينازع فيه الأب لامنس . فقد اتفقت مصادر التاريخ كلها اتفاقا بلغ حد التواتر على أن أبا بكر وعمر كانا غاية لا تلحق فى قوة الإيمان والتفانى فى خدمة الاسلام ، والبعد عن الأنانية وحب الذات ، حتى الخوارج أولئك الذين تنكروا للمسلمين جميعاً ، وفى مقدمتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرموهم بالكفر والضلال ، استثنوا رجلين اثنين من كل المسلمين هما أبو بكر وعمر لم يستطيعوا أن يجدوا فى تاريخهما كله هفوة ، ولا فى حياتهما الأسلاميه كلها زلة . وميزان الخوارج دقيق لا يغفر ، فهم يحكمون على من أذنب ولو ذنباً واحداً فى حياته أنه كافر مخلد فى النار . ولقد وضعوا أبا بكر وعمر فى هذا الميزان ، ونقبوا

فى حياتهما كل تنقيب فلم يجدوا فيها صغيرة ولا كبيرة ، فآمنوا بهما حين حكموا على كل المسلمين بالكفر ، واقتدوا بهما حين نسبوا كل مسلم إلى الضلال .

وأما أبو عبيدة بن الجراح : فلم يكن بأقل من صاحبيه إيماناً أو طهراً ، ولا تفانيا فى بناء الإسلام ، وحسبه هذه المنزلة الرفيعة التى وضعه فيها النبى ﷺ وهو ذلك الوصف الذى أفرده به دون سائر المسلمين وهو أنه (أمين هذه الأمة) فقد أخرج الحافظ الجزرى فى أسد الغابة قال رسول الله ﷺ « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » وأخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران إلى النبى ﷺ فقالوا : ابعث لنا رجلا أمينا فقال (لأبعثن إليكم أميناً حق أمين) . فاستشرف لها الناس ، فبعث أبا عبيدة ، ولم تختلف كتب التاريخ على هذه الصفة لأبى عبيدة ، ولم يختلف المسلمون فى أن النبى عليه السلام توفى وهو راض عن أبى عبيدة ومتوج له بهذه الصفة العظيمة ، وهو أنه « أمين هذه الأمة » والنبى عليه السلام أعرف الناس بأصحابه وأنفذهم إلى البواطن ، وأشفهم لخبآت الصدور ، فلم يكن يخفى عليه أصحاب المطامع وذوو الأغراض فإنه ليرى معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص يتناجيان وهما فى سفر مع المسلمين ، فيقول : « إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما فإنهما لا يجتمعان

على خير أبداً ، ولم يكن أبو عبيدة أقل من صاحبيه ، عزوفاً عن مظاهر النعمة ، وبعداً عن لين العيش ، فقد أراد عمر ذات مرة أن يمتحنه كما كان يفعل مع سائر قواده وولاته فأرسل إليه أربعمائة دينار وقال للرسول[1] : انظر ماذا يفعل فقسمها أبو عبيدة فى الفقراء ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يصنع هذا ! ولقد فتحت فتوح الشام فدنت النعمة من المسلمين وأضحوا يجدون من الذهب والفضة وأنواع الجواهر وصنوف الديباج والحرير مالا عهد لهم بمثله ، فكان أبو عبيدة من النفر القليلين الذين غضوا أبصارهم عن هذه النعمة وعافتها نفوسهم . فقد أخرج ابن عساكر عن ابن عمر أن عمر حين قدم الشام أراد أن يطلع على شأن أبى عبيدة ، فقال له : هلم بنا إلى منزلك ، قال أبو عبيدة وما تصنع عندى ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك . فدخل منزله فلم ير شيئاً ، قال أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبدا وصحفة وشنا (قربة) أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جوفه فأخذ منه كسيرات ، فبكى عمر فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك يا أمير المؤمنين . يكفيك ما بلغك المقيل . قال عمر غيرتنا الدنيا كلنا غير يا أبا عبيدة . ولم يكن أبو عبيدة مشغوفا بالإمارة ، ولا ولوعا بالسلطان . وإنما كان ولوعا بما فيه مصلحة المسلمين

(١) أشهر مشاهير الاسلام ص ٥١١ ج ٣ بتصرف

فهو جندى مطيع ، يكون حيث يؤمر أن يكون ، سواء لديه أن يكون رجلا كعامة الناس ، وأن يكون أميراً وقائداً ، فهو يأخذ نفسه بما حثهم عليه النبي ﷺ بقوله : « طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان فى الساقة كان فى الساقة ، وإن كان فى المقدمة كان فى المقدمة »[1] بل لا يبالى أبو عبيدة أن يتنحى عن الامارة إن رأى فى تنحيه عنها خيراً للمسلمين ، فها هو ذا يأتيه الأمر من عمر بتنحية خالد عن إمارة الجيوش بالشام ، وتعيينه هو قائداً عاما للجيوش . ولقد كانت نفس أبى عبيدة حرية أن تمتلىء نشوة وسروراً بهذا الشرف التاريخى العظيم فتسرع إليه فى غير تردد ، ولكنه يرى الحرب قد بلغت المرحلة الفاصلة ، ويخشى نشوب الفتنة بين المسلمين فى هذا الظرف العصيب ، فيكتم هذا الأمر فى نفسه ، ويظل جنديا تحت إمرة خالد بن الوليد حتى تضع الحرب أوزارها ، ويفوز خالد بالنصر العظيم . ولم يكن إيثار المصلحة العامة على الرغبة الشخصية فى هذه المرة فلتة من أبى عبيدة ، وإنما كان سجية فى نفسه وشعاراً لا يحيد عنه ، فنراه يتكرر منه فى غير موضع . وهذا عمرو بن العاص أمير الجند فى غزوة ذات السلاسل يطلب من النبي ﷺ مدداً فيرسل إليه النبي مدداً فيه سراة المهاجرين

(١) صحيح البخارى .

منهم أبو بكر وعمر وأمر عليهم أبا عبيدة ، فلما أتوا عمرو ابن العاص قال أنا أميركم ، وقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أميرنا ، وقال عمرو إنما أنتم مدد ، فلما رأى ذلك أبو عبيدة قال : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلىّ رسول الله أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وإنك إن عصيتنى لأطيعنك[1] . فقد أجمعت روايات التاريخ إذن على أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة كانوا مثلا أعلى فى قوة الايمان والبعد عن الطمع والزهد فى متاع الحياة الدنيا ، ولا يستطيع الآب لامنس أن يقول إن التاريخ الاسلامى يتحيز لرجال الاسلام ، فلا يتعرض لنقدهم ، فقد قلت فى صدر هذا الحديث إن النقد لم يتح له من القوة والحرية فى عصر من العصور ما أتيح له فى صدر الاسلام ، فقد كان الواحد من هؤلاء وغير هؤلاء يقول الكلمة فيقوم من هو أهون الناس شأنا فيردها عليه غير هائب ولا وجل . وهذا أبو بكر يقول للناس ، وهو خليفة : أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم . وهذا عمر يقول وهو خليفة أيضا : إن رأيتم فىّ اعوجاجا فقومونى . فيقول له رجل من عامة الناس : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم

(١) مشاهير الاسلام ج ٣ ص ٥١٦ .

اعوجاج عمر بسيفه . وإنه ليخطب ذات يوم فينهى الناس أن يزيدوا فى مهور النساء ، فقامت له امرأة تقول : ألم يقل الله فى كتابه (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا) فقال عمر : أصابت المرأة وأخطأ عمر ، ولايستطيع الأب لامنس أن يقول إن كتب التاريخ تحاشت الحديث عن مطامعهم وآثرت أن تضفى عليهم صفات الزهد تكريماً لهم ، فإن تواتر الروايات أبعد من أن يتطرق إليه الشك ، ثم إن المال لم يكن فى نظر المسلمين منقصة لا يتنزه عنها أولئك الرجال ، ولذلك فإنا نجد التاريخ يتحدث مفيضا مطنبا عن ثراء بعض الأعلام من أصحاب رسول الله كأبى هريرة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان وأمثالهم من أثرياء المسلمين دون أن يكون عليهم فى ذلك تثريب ، وإذا طعن الأب لامنس فى التاريخ الاسلامى فهل يستطيع أن يدلنا على تاريخ آخر أخذ منه ما يدعيه ؟

الفصل الرابع

أدلة الأب لامنس

وإذا نظرنا إلى وجهة نظر الأب لامنس نجدها لا تخلو من مغالطة حاول الأب أن يخفيها فلم يوفق ، فهو يقول : إن هدف أبي بكر وعمر وأبي عبيدة هو الاستحواذ على محمد وإبعاده عن أهله ، وقد نجحوا في ذلك ، فوضعوا محمداً داخل سياج متين أبعده عن أهله كعلى والعباس ، ولست أدرى مم أخذ الأب لامنس رأيه ذلك ، فإن أحداً من المؤرخين لم يقل بشيء منه حتى كتب الشيعة التي استعان بها في تأليف نظريته لم تقل بذلك . وإنما يتفق المؤرخون على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أبر الناس بأقربائه وأوصلهم لأرحامه وأعطفهم على أهله لاسيما على ابن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب ، الذين يقول الأب لامنس أنهما مُنعا عنه ، فنجدهما يلازمانه في الشدة والرخاء ، فحين ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار في بيعة العقبة ليلا لم يصطحب معه غير العباس ، وحين توجه إلى مكة فاتحا كان العباس أدنى الناس منه ، وهو الذي أجار أبا سفيان حينئذ فأجاز

النبي جوار عمه ، وحين فوجىء المسلمون بكمين هوازن فى غزوة حنين اضطربوا وتفرقوا عن النبي فلم يثبت معه غير نفر قليل منهم العباس الذى أخذ ينادى الناس بصوته الجهير حتى اجتمعوا حول النبي . وعلى بن أبى طالب كان درع النبي وسيفه لم يفارقه فى شدة من الشدائد ولقد أصهر إليه النبي صلى الله عليه وسلم بابنته فاطمة فكان يزور بيتهم دائماً ، وقلما تمر روحه أو غدوة إلا والنبي معرج عليهم يتفقد حالهم ويعنى بشأنهم . وقد مرض النبي فلازمه أقرباؤه طيلة مرضه وقد سأله الناس من يغسلك من يجهزك ؟ فقال : أهلى[1] ، وكانت حجة على حين يسأله الناس فلم لم تخرج إلى الناس تطالب بالخلافة ؟ أن يقول : أكنتم تريدوننى أن أترك رسول الله لم يجهز ثم أخرج لأطالب بالخلافة ؟ وعن عائشة قالت : خرج النبي فى مرض موته يمشى بين رجلين من أهله أحدهما الفضل ابن العباس ورجل آخر قال ابن عباس هو على بن أبى طالب . ثم يقول الأب لامنس إن هذا الثالوث الذى تألف من الرجال الثلاثة كان حجر عثرة فى سبيل الشورى التى كانت تدين بها العرب ولذلك لم توجد الشورى فى عهد أبى بكر

---

(١) التاريخ الاسلامى فياض ص ٨٥ وفى سيرة ابن هشام ج ٣ : على والعباس والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى الرسول هم الذين تولوا غسله بسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٧٤ .

ولا فى عهد عمر . ولست أدرى ماذا يعنى الأب لامنس من الشورى ؟ أيعنى الشورى فى اختيار الحاكم ، أم يعنى مطلق الشورى فى كل ما يعرض للناس من أمورهم فيتشاورون فيها ويتعاونون بآرائهم عليها . إن كان يعنى الشورى فى اختيار الحاكم لم يكن قوله إن العرب كانت تدين بالشورى صحيحا فإن الحجاز لم يكن يعرف نظام الملك طيلة تاريخه حتى نقول إنهم كانوا يتشاورون فى اختيار الحاكم أولا يتشاورون وإنما كانوا يعرفون نظام السيادة وشيوخ القبائل ، وهذا النظام لم يكن قائماً عندهم أيضاً على الشورى وإنما كان يتوارثه سادة القبائل عن آبائهم وأجدادهم ، حتى ينقطع نسل سيد القبيلة ، فيختارون بعده غيره ، أو يظهر فى القبيلة رجل أقوى منه شكيمة فيغلبه أو يغلب ولده على سيادة القبيلة ، فعلى أى حال لم تكن العرب تدين بالشورى كما يقول الأب لامنس . وأما قوله إن الشورى لم توجد فى عهد أبى بكر ولا عمر فهو قول بعيد عن الحقيقة أيضاً من الوجهين ، وجه اختيارهما ووجه تشاورهما مع أصحابهما ، أما اختيار أبى بكر فقد كان من الواضح أنه إنما كان خليفة بعد أن بايعه المسلمون جميعاً ورضوا خلافته ، إلا رجلين هما سعد ابن عبادة وعلى بن أبى طالب فى بعض الأقوال ، وقد ظل

أبو بكر بعد بيعته ثلاثة أيام ينادي : هل من كاره قد أثقلته بيعتي[1] . ولو أن المسلمين رفضوا بيعته لم يكن فى وسعه ولا وسع عمر وأبي عبيدة أن يقيماه خليفة على رغم المسلمين . فأى شورى يرضى عنها الأب لامنس إذا لم يرض بهذه الشورى التى أبدى الناس فيها آراءهم وبيعتهم لأبى بكر فرداً فردا !؟ وأما الشورى فيما يعرض للناس من أمور ، فما عرف الناس ولا حدث التاريخ أن أبا بكر قطع أمرا دون مشورة الناس واستفتاء أصحابه فيه ، وكذلك الشورى فى عهد عمر ، فإن أبا بكر لم يستخلف عمر ضربة لازب ، وإنما استشار فيه ذوي الرأى من أصحابه وسيأتى تفصيل لهذا الحديث . وأما المشورة فيما يعرض للناس من أمور فذلك أمر التزمه عمر فكان على سداد رأيه وقوة شخصيته لا يبرم أمراً إلا حين يرى رأى أصحابه فيه ، فلم تكن الشورى فى عهد أكمل منها فى عهد أبى بكر وعمر ، لم تكن قبل الإسلام شورى ولم تكن بعد خلافة هذين الشيخين شورى بالمعنى الذى علماه للناس ، فكانت خلافتاهما غرتين فى جبين التاريخ وفردوساً لحرية الرأى والشورى بين الناس ، وذلك كله ليس محل خلاف فى كتب التاريخ . فمن أين أتى لامنس بآرائه ؟ ذلك ما يعجز الأب لامنس عن الإجابة عليه .

---

(١) التاريخ الاسلامى فياض ص ٨٧ .

الفصل الخامس

زواج عائشة

ويقول الأب لامنس إن أبا بكر فكر فى الاستفادة من ابنته عائشة ، إذ رأى فيها ذكاء ومهارة فى تدبير الحيل وحبك المشروعات ، فزوجها من محمد مع أنها كانت مخطوبة لغيره ، ولقد كانت عائشة تغرى محمداً باستخلاف أبى بكر . فهى جاسوسة حسناء فى بيت محمد ، تعمل لتنفيذ مؤامرة أبيها .

وهكذا نرى الأب لامنس لم يكتف بإسناد المؤامرة المزعومة إلى الثلاثة حتى ضم إليهم طرفاً رابعاً مساعداً ، هو هذه الزوجة الوفية المخلصة عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنه وعنها ، فجعلها جاسوسة ، وجعل تزويجها من النبى — من برامج المؤامرة — فأما زواجها فلنستمع إلى الطبرى يحدثنا حديثه فيقول : «إن خولة بنت حكيم بن أمية زوج عثمان بن مظعون (إبنة عمة النبى) أتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة (وهو بمكة) فقالت له : ألا تتزوج ؟ فقال : ومن ؟ قالت : إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا ، قال : فمن البكر ، قالت : إبنة أحب خلق

الله إليك ، عائشة بنت أبي بكر قال : ومن الثيب ؟ قالت : سودة
بنت زمعة بن قيس ، قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه قال:
فاذهبي فاذكريها عليّ ، فجاءت فدخلت بيت أبي بكر فوجدت
أم رومان (أم عائشة) فقالت : أي أم رومان ما أدخل الله عليكم
من الخير والبركة قالت أم رومان : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني
رسول الله لأخطب عليه عائشة قالت : وددت ، انتظري أبا بكر
فإنه آت فجاء أبو بكر فقالت : يا أبا بكر ماذا أدخل عليك من
الخير والبركة ، أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة ، قال :
وهل تصلح له ؟ إنما هي إبنة أخيه ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ
فقالت له مثل ذلك . فقال ارجعي فقولي له أنت أخي في الإسلام
وأنا أخوك وابنتك تصلح لي فأتت أبا بكر فذكرت له ذلك
فقال : انتظريني حتى أرجع فقالت أم رومان : إن المطعم بن عدي
كان ذكرها على إبنه ولا والله ما وعد شيئا قط فأخلف ، فدخل
أبو بكر على مطعم وعنده امرأته أم إبنه الذي كان ذكرها
عليه ، فقالت العجوز : ياابن أبي قحافة لعلنا إن زوجنا إبننا من
ابنتك أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه ، فأقبل على
زوجها المطعم بن عدي ، فقال : ماتقول هذه ؟ فقال إنها تقول
ذاك . قال فخرج أبو بكر وقد أذهب الله العدة التي كانت في نفسه

من عدته التى وعدها إياه . وقال لخولة : ادعى لى رسول الله فدعته فجاء فأنكحه عائشة وهى يومئذ ابنة « ست سنين »[1] هذه رواية لم يطعن فيها المؤرخون ، ولم يقدحوا فى صحتها ، ولم يكن الرواة حين رووها قد سمعوا بمثل نظرية الأب لامنس حتى تقول إنهم قد اخترعوها لينفوا عن زواج عائشة الشبهات ، فأبو بكر لم يزوج عائشة لينفذ بزواجها مؤامرته ، وإنما النبى هو الذى خطبها إليه ، بل كان أبو بكر يظن أنها لا تحل للنبى لأنها إبنة أخيه ، ولم يفسد أبو بكر خطبة المطعم بن عدى كما يقول لامنس ، ولكن المطعم هو الذى خشى على إبنه أن يفتن فى دين آبائه بزواجه من إبنة أبى بكر . والنبى إذن قد خطبها وهى فى السادسة أو السابعة من عمرها . فهل كانت عائشة حقاً فى هذه الطفولة المبكرة تحسن السياسة والدهاء ؟ وتجمع روايات التاريخ طراً على أن النبى دخل بعائشة وهى لم تتجاوز العاشرة من عمرها . فهل كانت عائشة أيضاً فى هذه الطفولة من المهارة والدهاء بحيث تعمل لهذه المؤامرة الدقيقة الكبيرة ، ولست أدرى كيف يعترف الأب لامنس لأبى بكر بالذكاء وبعد النظر ثم يبيح لنفسه أن يتخيله وهو يسر إلى طفلة صغيرة بأخطر سر وأعظم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ح ٣ ص ١٧٥

مؤامرة ! وإن عائشة لتتحدث عن طفولتها حين زفت إلى النبي ﷺ فتقول إنها بينما كانت تلعب فى أرجوحة بين خشبتين إذ جاءتها أمها فأمسكت بيدها ثم ذهبت فنضحت وجهها بالماء ، ثم دخلت بها حجرة فيها النبي ﷺ على سرير ، فجلست ثم انصرف من بالحجرة وبقى النبي وعائشة فبنى بها من ذلك الحين فى عام الهجرة[1] .

أفليس من العجيب حقا أن يستسيغ لامنس الأريب اللبيب أن يصغر تفكير ثلاثة من أقطاب الفكر وأعلام العبقرية حتى يطلعوا على سرهم طفلة صغيرة تتأرجح على أرجوحة بين خشبتين ؟ ومع ذلك فأعجب منه أن يعترف الأب لامنس بعبقرية محمد فى تفكيره وسياسته قائلا : إن أبا بكر اكتسب خبرته وسياسته من صحبته لمحمد ، ثم يستسيغ لمحمد العبقرى أن تغرر به طفلة ساذجة ، وأن يكون الذى دفعها إلى التغرير بمحمد تلميذ محمد ؛ أعرف الناس بعبقريته وشخصيته ! فلو أن عائشة كانت طاعنة السن ، واسعة الخبرة حين تزوجها النبي لكان حديث الأب لامنس أدنى إلى العقل ، ولو أن الذى زوجها للنبي كان صغير العقل أو جاهلا بشخصية النبي ، لكان حديث الأب لامنس أقرب إلى المعقول ،

(١) تاريخ الأمم والملوك الطبرى ج ٣

على أن عائشة لم تكن ساذجة غريرة فى السن التى تزوجها فيه النبى فحسب . وإنما ظلت لا تخلو من سذاجة طيلة وجودها فى بيته عليه السلام .

فالنبى يسأل عنها أهل بيته حين تحدث الناس حديث الإفك فيقول أهل بيته : والله ما علمنا عليها من سوء غير أنها تنام[1] عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله ، وظلت كذلك لا تخلو من سذاجة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهذه عائشة نفسها . تحدثنا عن سذاجتها يوم وفاة النبى عليه السلام فتقول : فمن سفهى[2] وحداثة سنى أن النبى قبض ورأسه فى حجرى ؛ فوضعت رأسه على الوسادة وقمت ألطم مع النساء[2] .

ويستدل الأب لامنس على اشتراك عائشة فى المؤامرة بأن عمر زاد فى عطائها عن سائر نساء النبى . والذى يسمع عن هذه الزيادة من غير المسلمين يخال أن عمر بنى لها القصور وأغرقها فى سيل من الذهب والفضة وصنوف الأموال ، والذين قرأوا عن التاريخ الإسلامى يعلمون أن هذه الزيادة كانت ألف درهم فى كل عام فقد فرض عمر لكل واحدة من أمهات المؤمنين عشرة آلاف درهم

---

(١) صحيح البخارى .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٦٧ .

وفرض لعائشة اثنى عشر ألف درهم فى كل عام ، والألف درهم لا تبلغ خمسين جنيهاً مصرياً ، وهى فى نظر الأب لامنس أجر عائشة على جاسوسيتها ، فهل عرف الأب لامنس جاسوسة تقنع بخمسين جنيها كل عام من رجل حققت له أن يبسط يده على ملك واسع عريض . فيالها من قناعة لم يعرف تاريخ الجاسوسية مثلها ! وهل عرف الأب لامنس ملكا واسع الملك عظيم الثراء يبلغ به الشح أن يبخل على جاسوسته التى حققت له آماله فلا تزيد هبته لها عن خمسين جنيها كل عام . أما كانت الجاسوسة حرية أن تنقم عليه فتكشف سره وتقوض دعائم ملكه ؟ لاسيما إذا كانت تملك جاها واسعا وكلمة مسموعة ، وحصنا منيعا يحميها من كل سوء كما كانت تملك عائشة زوج الرسول وأم المؤمنين وابنة أبى بكر الصديق ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، وإنما كان عمر يضع مبادئ وأسسا يفرض عليها العطاء فلا يتجاوزها قيد شعرة ، ولا يتهاون فيها مقدار ذرة فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والقدم والبلاء هما مدار التفاوت فى العطاء عند عمر . ولذلك كان أهل بدر أكثر من غيرهم عطاء ،

وكان أهل البلاء والغناء أكثر من غيرهم عطاء[1] ، وعائشة جمعت بين الفضيلتين فهى قديمة فى الإسلام ، وهى ذات بلاء وأى بلاء ، وحسبها أنها أحيت للناس نصف دينهم ، وهو ما يتعلق بأحكام النساء ، وما كان يفعله النبي ﷺ فى بيته فلا يطلع عليه الناس من نحو الغسل وعبادة الليل ، فقد كان لعائشة فى ذلك على المسلمين فضل عظيم ، فهى إذن ذات بلاء تستحق به زيادة العطاء عند عمر ثم إن نفقة عائشة لم يكن إنفاقها مقصوراً عليها كما كان غيرها من أزواج النبي ، بل كان بيتها مفترحا دائما للذين يتلقون عنها الحديث ، وللذين يطلبون بسبب الحاجة ، فكانت أحوج إلى المال من سائر زوجات النبي . ثم نجد الأب لامنس قد بلغت به الحيرة فى أمر عائشة أن يتساءل ! فماذا نعلل نفوذ عائشة فى بيت محمد ؟ ولست أدرى أى نفوذ يعنى ؟ أيعنى أن عائشة كانت صاحبة السلطان فى بيت محمد ؟ فإن عائشة أو غيرها لم يكن له فى بيت النبي سلطان . وعلى أى شىء يكون السلطان ؟ أعلى الأموال والكنوز والمتاع ؟ فإن بيت النبي لم يكن فيه من ذلك قليل

---

(١) ففى البخارى عن عمر أنه قسم مروطاً (فى غنيمة) على نساء من نساء المدينة فبقى مرط جيد ، فقال له بعض من عنده يا أمير المؤمنين اعط هذا بنت رسول الله التى عندك — يريد أم كلثوم بنت على — فقال عمر أم سليط أحق به (وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع النبى) قال عمر : كانت تزف — تخيط أو تحمل — لنا القرب يوم أحد .

ولا كثير ، فهذه صحاح الأحاديث تحدثنا أن النبي ﷺ كان يدخل بيته فيقول : هل عندكم شيء ؟ فيقلن لا ، فيقول : اللهم إني صائم . وهذه عائشة تقول : كنا (في حياة النبي) نرى الهلال ثم الهلال ثم الهلال . ثلاثة أهلة في شهرين وما توقد في بيت النبي نار ، فقال ابن أختها عروة بن الزبير : وما كان يعيشكم يا خالة ؟ قالت : الأسودان التمر والماء[1] . أم يعنى الأب لامنس بنفوذ عائشة في بيت محمد أنها ذات دلال عليه ، وصاحبة مكان في قلبه لم يكن لغيرها من أزواجه ؟ إن كان يعنى ذلك ، فذلك حق لا ريب فيه . فقد كانت عائشة أحب أزواج النبي إليه . وأدناهن من قلبه ، ولم يكن عليه السلام يخفى هذا الحب ، بل يتحدث به إلى الناس ، فهذا عمرو بن العاص يسأله كأنه يريد أن يعرف منزلته عند النبي حين ولاه الإمارة ، فيقول : من أحب الناس إليك يارسول الله ؟ فيقول : عائشة . فقال عمرو ثم من ؟ قال : ثم أبوها ، قال ثم من ؟ قال : ثم عمر ، وسمى رجالا ليس منهم عمرو بن العاص ، فكان عليه السلام يعدل بين نسائه أحسن العدل في معاملته لهن وتوفيتهن حقوقهن ، ولكن لا يستطيع أن يقسم الحب ، فكانت عائشة تفوز منه بأوفى نصيب ، وكان يتحدث

---

(١) صفوة صحيح البخاري

بذلك فيقول : « اللهم هذا قسطى فيما أملك فلا تؤاخذنى بما لا أملك » ، ولكن لِمَ كان النبى يحب عائشة أكثر من غيرها ؟ ومع أن هذا السؤال غير ذى موضع ، فإن الحب لا يسأل عن سببه . فقد يحب الرجل امرأة فلا يعرف الناس سببا لهذا الحب ، بل هو نفسه قد لا يعرف لهذا الحب سببا ، مع هذا نستطيع أن نذهب عن الأب لامنس بعض حيرته ، فنقول إن عائشة كانت جميلة لا ريب فى ذلك عند المؤرخين ، والجمال نفاذ مؤثر بطبعه ، والناس يقولون إن الاحساس بالجمال والتأثر به من لوازم الاحساس المرهف ، والقلوب النابضة بالعطف والوداعة والرحمة ، وقد كان محمد عليه السلام أوفى الناس من هذه الصفات حظا ، فلا عجب أن يحس بالجمال وأن يتأثر به ، وإنا لنراه يتحدث عن النساء فى رقتهن وجمالهن فيصفهن وصفا لا نعرف أن أحداً قد سبقه إليه ، ولا نعرف أيضا وصفا أبلغ منه فى موضوعه ، فهو يقول للذين يسرعون بالابل التى تحمل النساء فى السفر « رفقا بالقوارير »[1] فكان النبى يحب عائشة . ولم تكن عائشة أقل حبا لشخص النبى من حبه إياها ، ولم يكن حبها وليد الزواج فحسب ، ولكنه حب شب معها منذ فتحت عينيها على الحياة .

---

(١) وكان الذى يحدو الابل حينئذ يقال له أنجشة ، فقال النبى (يا أنجشة رفقا بالقوارير) .

فهى تراه يزورهم كل يوم [1] ، كان يزور صديقه أبا بكر فيكثر من الزيارة يفقهه فى الدين ، ويروح عنه بعض ما يجد من ضر وأذى فى الاسلام ، فألفته عائشة منذ عرفت الحياة ، ثم رأت أباها يدين له بالاجلال والاعجاب والولاء ، والطفل عامة والفتاة على وجه أخص ترى فى أبيها المثل الأعلى فى الناس ، فإذا رأت — كما رأت عائشة — أباها يجل رجلا فيكبره ويبذل حياته بما فيها من نفس ومال وولد فداء لذلك الرجل ، امتلأت نفسها إعجابا بهذا الرجل وإكباراً له ، وافتتانا به ، فالطبعى إذن أن عائشة تضمر للنبى عاطفة قوية قديمة شبت معها منذ عرفت عائشة الحياة ، ثم تزوجته فرأت منه كل مايغرى المرأة ويأسر قلبها ، شخصية قوية ، ورجولة مكتملة ، وجمال باهر ، ومجد عريض ، ونفس نبيلة ، وخلق عظيم ، ودعابة جميلة ، فلم يكن عجيبا أن يمتلىء قلب عائشة حباً لشخص محمد عليه السلام ، والحب من لوازمه التجاوب ، ولم يكن عجيبا أن يبادلها محمد هذا الحب ، وأن يكون حبها قويا عميقا كأقوى ما يكون الحب ، ولو كانت عائشة جاسوسة لم يسع أن تبلغ من قلب محمد ما بلغت ، فإنا لننظر إلى علاقتهما فنجد فيها أكثر مما يكون بين مجرد زوجين ، نجد أسلوبا فيه

(١) انظر صفوة صحيح البخارى

دعابة الحب . ودلال العشق ، فهو يقول لها : « إنى لأعرف إذا كنت على راضية . وإذا كنت غضبى ، فأما إذا كنت راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وأما إذا كنت غضبى فإنك تقولين : ورب إبراهيم ، فتقول عائشة والله يارسول الله ماأهجر إلا اسمك » ونجد من دلال عائشة دائماً فوق ما يكون من زوج لزوجها .
ونجد من ميل الرسول إليها أيضاً فوق ما يكون بين الزوج وزوجه ، فهو يستأذن نساءه عند السفر فى أن يصحبها معه ، ولو كان يبغى مجرد زوج لكان فى غيرها من أزواجه غناء .
وإنى لأعجب لبعض الذين يكتبون فى التاريخ الإسلامى حين يحيدون بشخص الرسول عن كل ما يربطه بالحب الجنسى ، والغريزة البشرية ، ويلتمسون لذلك كل ملتمس ، كأنهم يقدرون أنه مجرد عن الغرائز ومقتضيات الجنس ، وكأنهم يرونه ملكا لا ينبغى له أن يكون كالبشر ، وإنه ليؤكد لهم على لسان القرآن الكريم « لا أقول لكم إنى ملك » وأيضاً « إنما أنا بشر مثلكم » وإنه لينكر على الذين يريدون أن يقتلوا ما أودع الله فيهم من غرائز ، فيصومون لا يفطرون ، ويقومون لا ينامون ، ويجتنبون النساء فلا يقربونهن ، يقول لهم « إنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآتى النساء » ويتحدث إلى الناس فيقول : حبب إلى من دنياكم

الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة ، فالغرائز في ذاتها من الكمال الإنساني ، وإنما يتفاوت الناس في توجيهها نحو الخير ونحو الشر . فالنبي إذن كان يحب عائشة . والحب كفيل بأن يجعل عائشة آثر نسائه عنده وأقربهن من قلبه . أفلا يكفي ذلك مقنعا للأب لامنس بأن منزلة عائشة في بيت محمد كانت لحبه إياها ، ولم تكن للجاسوسية التي تبعث على الريبة وتدعو إلى الشك ، ولم يكن جمال عائشة وحبها للرسول كل ما جعله يضمر لها هذا الحب ، بل إن أموراً أخرى كانت عائشة منفردة بها عن سائر أزواج النبي ، هي التي أحلتها هذه المنزلة من قلبه ، فهي إبنة أبي بكر صديق النبي ، وأحب الناس إليه ، فحب النبي لأهل عائشة من مقويات حبه لها ، فالناس يشاهدون أن حب الزوج لأسرة الزوجة مما يدعم علاقة الزوجين . ثم إنه تزوجها طفلة لم تكتمل أنوثتها فوجدت هي في قلبه الكبير وحنانه الرقيق ما عوضها عن أحضان والديها ، فحنت إليه حنين الطفل إلى أبويه ووجد هو فيها طفولة بريئة ساذجة ، فأضفى عليها من بره وعطفه مايضفيه الآباء على أطفالهم ، ثم هي المرأة الوحيدة التي دخل بها النبي بكراً ، فوجد فيها القلب المغلق الذي لم يفتح لغيره ، فلا عجب أن يهبها قلبه . ونستطيع أيضا أن نقول إن عائشة وخديجة هما الزوجان

اللتان بنى بهما رغبة فى ذات الزواج ، فقد تزوج خديجة ليكون رب أسرة ، فلما توفيت سعى إلى عائشة ليظل رب أسرة ، ولذلك نجده يضمر لهما من الحب والوفاء ما لم يحظ به غيرهما من أزواجه ، أما سائر أزواج النبى فبعضهن تزوجهن لأن أزواجهن ماتوا فى سبيل الإسلام ، وليس لهن عائل ، فتزوجهن الرسول ليعولهن ، وبعضهن كن مؤمنات مكافحات فتزوجهن تشريفا لهن ورفعا للأذى والضر عنهن ، وبعضهن تزوجهن تألفاً لقبائلهن ... وغير ذلك .

فعائشة إذن جمعت من المزيات مالم تجمعه غيرها ، وقد فاضت من قلب النبى الكريم ينابيع من الود والبر نحو عائشة ، فهذا ينبوع من رعاية الرسول لصداقة أبى بكر فى شخص عائشة ابنته ، وهذا ينبوع من الأبوة الحانية يتفجر من قلب الرسول ليغمر عائشة الطفلة الرقيقة ، وهذا ينبوع الوفاء يترقرق من قلب الرسول ليبادل حب عائشة بحب ، وإخلاصها بإخلاص ، هذه ينابيع كريمة فاضت من قلب النبى ﷺ ذلك القلب الكبير ، ثم التقت هذه الينابيع فكانت منها هذه البحيرة الكريمة عائشة بنت أبى بكر حبيب محمد عليه السلام وزوجه الوفية المخلصة ، والذى يقارن بين نظرية الأب لامنس ، والتاريخ الاسلامى يجد أنه قد اعتمد على أربع مصادفات .

المصادفة الأولى : انطلاق الثلاثة وحدهم إلى السقيفة ، ثم تأييد عمر وأبي عبيدة لأبي بكر فى الخلافة .

والمصادفة الثانية : هى استخلاف أبى بكر لعمر .

والثالثة : قول عمر عند وفاته : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته .

والرابعة : زواج النبى من عائشة ، فأما زواج عائشة فقد أسلفت الحديث عنه .

الفصل السادس

اختيار أبى بكر

وأما المصادفة الأولى عن خلافة أبى بكر فلعل الأب لامنس يقول فيها : لمَ ذهب هؤلاء الثلاثة دون المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة ؟ ولمَ كان عمر وأبو عبيدة أسبق الناس إلى بيعة أبى بكر ؟ ويجيب التاريخ على السؤال الأول بأن الروايات الصحيحة اتفقت على أن اللذين بدآ بالذهاب إلى السقيفة هما : أبو بكر وعمر ، وأما أبو عبيدة ، فقد لقيهما عرضاً فى الطريق فقصد معهما إلى السقيفة ، ثم إن أبا بكر [1] وعمر لم يفكرا فى الذهاب من تلقاء نفسهما ، بل لم يعلما من أمر السقيفة شيئاً حتى أقبل عليهم المهاجرون ينبئونهما النبأ ويستحثونهما على أن يدركا أمر المسلمين قبل أن تضرب الفتنة أطنابها ، فقال عمر لأبى بكر هلم بنا إلى إخواننا من الأنصار ننظر ما هم عليه !

وهذه بعض الروايات تحدثنا أنهما لم يذهبا وحدهما وإنما

(1) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٦٨ ومثله مشاهير الاسلام ص ٢١

ذهب معهما جماعة من المهاجرين [١] .

وكيف يفكر عمر فى الخلافة فى هذا الوقت العصيب من وفاة النبى عليه السلام وهو الذى أذهلته الصدمة فزلزلت عقله اللبيب ، فقام بسيفه يقول : « من زعم أن محمداً مات ضربت عنقه » وأما عن السؤال الثانى وهو أن عمر وأبا عبيدة كانا أسبق الناس إلى بيعة أبى بكر ، فيجيب عنه التاريخ قائلا : إن الروايات لم تتفق على أنهما سبقا ببيعة أبى بكر ، بل هناك من الروايات الصحيحة ما يقول إن بشير بن سعد الأنصارى أول من بايع أبا بكر وقد كان لموقفه ذاك أثر كبير فى تفرق الأنصار وتدعيم موقف المهاجرين ، فهل يقول الأب لامنس إن بشير بن سعد كان ركناً فى المؤامرة أيضاً ؟ وعلى فرض أن عمر كان أول من بايع أبا بكر فلم يكن أبو بكر هو المعين للخلافة كما يقول الأب لامنس : إن أبا بكر كان هو الرجل الأول فى المؤامرة ، فهذا أبو بكر يقول للناس فى السقيفة هذا أبو عبيدة وهذا عمر فأيهما شئتم فبايعوا ، فقالا : والله لا نتولى عليك هذا الأمر ، فإنك أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام [٢] . فيا ترى هل غاب

(١) مشاهير الإسلام ص ٢١ ج ١

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ، الشيخ الخضرى ص ٢٤٣ وفى رواية أن عمر قال لأبى عبيدة هلم أبايعك فرفض أبو عبيدة مقدما أبا بكر . مشاهير الإسلام ص ١٦ .

عن المتآمرين ترتيب أنفسهم فى الخلافة أم أتموا هذه الحلقة فى السقيفة ؟ ولكن الحق أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة كانوا أصلح المسلمين للخلافة ، وطريقة أبى بكر وعمر فى تسيير دفة الحكم وطريقة أبى عبيدة فى قيادة الجند تؤيد ذلك . وكان أبو بكر بدوره أصلح الثلاثة للخلافة فى ذلك الحين ، فهو أول الناس إسلاماً ، وأجلهم تضحية فى سبيل الله ، وأحبهم إلى رسوله ، وقد أثبت فى خلافته القصيرة أنه لم يكن أحد ليقوم مقامه ويغنى غناءه . فقد أرسى قواعد الإسلام بعد أن زلزلت أى زلزال بردة العرب عن الإسلام، وتوانى المسلمين جميعاً عن القتال إلا أبا بكر فإنه صاح فى عمر : (أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ولو لم يقم معى أحد من المسلمين لقاتلتهم وحدى ما قام هـذا السيف فى يدى) فأرسى قواعد الإسلام فى جزيرة العرب بمخالفته لسائر المسلمين وقد رأى معظم المسلمين إلغاء بعث أسامة الذى جهزه النبى لحروب الروم محتجين بحاجتهم إلى الجند لحماية المدينة من المرتدين ، ولكن أبا بكر رأى فى سير جيش أسامة إرهابا للعالم الخارجى ، وإظهاراً لشوكة المسلمين خشية أن يتألبوا على المدينة كما فعل المرتدون . وبذلك أرهب أبو بكر العرب بحروب الردة ،

وأرهب غير العرب بجيش أسامة فعرف النـــاس له حينئذ بعد نظره ودقة رأيه ، ولو أن الذى تولى الخلافة حينئذ رجل غير أبى بكر لقلنا أنه من المحتمل أن تكون مؤامرة قد رفعته إلى الخلافة كما يزعم الأب لامنس ، ولكن أبا بكر قد أخذ وضعه الطبيعى بتوليه الخلافة ، فهو أثقب الناس رأياً ، وأبعدهم نظراً ، وله من المميزات الدينية ما أسلفت عنه الحديث مما لم يفز به رجل آخر من المسلمين . ثم أن النبى ﷺ أشار إلى استخلافه غير مرة، فهو يحدث الناس بأنه رأى فى منامه كأنه على بئر فينزح منها ماشاء الله أن ينزح ثم أخذها أبو بكر فنزح دلوا أو دلوين ، ثم أخذها عمر فاستحالت غرباً ، وهو عليه السلام يقول فى مرض موته « لقد هممت أن أرسل إلى أبى بكر وابنه وأعهد خشية أن يتمنى المتمنون أو يطمع الطامعون ثم قلت يأبى الله ويدفع المسلمون »(١) أى يأبى الله أن يتولى الخلافة غير أبى بكر ويدفع المسلمون غيره أن يزاحمه عليها . وهو يأمره دون المسلمين أن يؤم الناس فى الصلاة بهم حين اشتد به المرض عليه السلام ولم يكن تقديمه لأبى بكر مصادفه بل تعمداً وإصراراً ، فهـــذه عائشة تخشى أن يتشاءم المسلمون من نيابة أبى بكر عن النبى فى مرضه ويكون ذلك

(١) مضمون رواية البخارى فى صحيحه .

مصدر نفور منهم عن أبي بكر فتقول للنبي حين أمر أن يصلى أبو بكر بالناس يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق كثير البكاء حين يقرأ القرآن ولكنه كرر أمره بإنابة أبي بكر فعادت عائشة تعتذر عن أبيها ففهم النبي قصدها فقال إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس [1] .

وقد أمر عمر بلالا ذات مرة أن يصلى بالناس فسمع النبي صوته فقال : فأين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون يأبى الله ذلك والمسلمون [2]، وقد ظل المسلمون يظنون أن النبي استخلف أبا بكر حتى قال عمر عند وفاته : إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر وإن أتركهم فقد تركهم من هو خير مني رسول الله ﷺ فعلموا أن النبي لم يستخلف أبا بكر [3] ، وليس من المعقول أن يكون المسلمون جميعاً يظنون ذلك ، وإلا لم يكن ليسوغ عند الأنصار التردد فى بيعة أبي بكر ، ولكن المقصود من ذلك أنه شعور عام عند معظم المسلمين أن النبي استخلف أبا بكر أو على الأقل أنه أبدى رغبته فى أن يكون أبو بكر خليفة بعده وقد ساد هذا الشعور

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٦٤

(٢) « « « ج ٣ ص ٤٦٤

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٦٥

لكثرة ما سمعوا ثناء النبى على أبى بكر وكثرة ما أشار فى مرضه أن ينوب عنه أبو بكر فى أخص خصائص الرسول التى تتعلق بالمسلمين ، فالمسلمون حين بايعوا أبا بكر لم يبايعوه لأنه فرض نفسه أو فرضه أحـــد عليهم كما يدعى الأب لامنس ولكنهم مسلمون يؤمنون بالله ويطيعون رسوله ، فقد رأوا الرســـول يشير إلى استخلاف أبى بكر ثم رأوا أبا بكر أكفأ الناس وأحقهم بالخلافة فبايعوه راغبين غير مكرهين . وأى مظهر رأى فيه لامنس إكراهاً للمسلمين على بيعة أبى بكر حتى يدعى ما يدعى ، وحتى يقول إن هـــذا الثالوث وقف حجر عثرة فى سبيل الشورى التى تدين بها العرب ، وأريد أن أكرر هذا السؤال للأب لامنس فأقول: أى مظهر كان من مظاهر إكراه المسلمين والحيلولة بينهم وبين الشورى ؟

أيستسيغ الأب لامنس أن ثلاثة رجال وحدهم يكرهون أمة من الناس فيها مئات الأعلام وآلاف الأبطال ! إنه عصر لم يألف الخضوع للسيطرة والحكم ، وإنما ألف الخضوع للحق والإنصاف ، هل هناك حديث رواية واحدة فى التاريخ الصحيح أن المسلمين أرغموا على بيعة أبى بكر ؟

أليس أبو بكر هو الذى ينادى متنقلا فى الناس عقب بيعته : هل من كاره فأقيله من بيعتى .

الفصل السابع

استخلاف عمر

وأما المصادفة الثانية وهى استخلاف أبى بكر لعمر . فليس فيها أيضاً دليل على ما يدعيه الأب لامنس من وجود مؤامرة على الخلافة. وأن أبا بكر استخلف عمر تنفيذاً لشروط هذه المؤامرة .

وذلك لأن أبا بكر لم يستخلف رجلا من عامة الناس أو من الدخيلين على الإسلام أو استخلفه وترك رجلا آخر أكفأ منه للخلافة حتى نظن بأبى بكر هذا الظن ، فعمر كان عند النبى عليه السلام بعد أبى بكر فى الفضل لاينازعه أحد ، وقد أشار النبى إلى ذلك فى غير مرة كما أسلفت من حديث رؤيا البئر . وحديث الذى سأله عن أحب الناس إليك . فقال : عائشة ، ثم أبوها ثم عمر ثم كثير غير ذلك ، والنبى يزكيه للمسلمين أكثر من مرة أيضاً تزكية لم يزكها أحداً من أصحابه ، فهو يقول للمسلمين « لقد كان فيمن قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يك من أمتى أحد منهم فعمر »[1] وهو يقول « لو كان بعدى نبى لكان عمر » .

(١) صفوة صحيح البخارى .

وأما عن عقلية عمر وحسن سياسته وتدبيره وكفاءته للخلافة فذلك أوضح من أن نقيم عليه الدليل ، فأبو بكر حين اختار عمر للخلافة إنما اختار رجلا يعلم أنه لا يكافئه رجل آخر في المسلمين ، والمسلمون حين قبلوا خلافة عمر يعلمون أنهم قبلوا خلافة رجل لم يشعروا بالعزة إلا حينما أسلم ، ثم لم يروه بعد ذلك إلا معزاً للإسلام متفانيا فى رفع رايته . وكانوا يعلمون أيضا منزلته عند رسول الله وإشارته إلى استخلافه بعد أبي بكر فهم يسمعون النبي يقول : « إنى لا أدرى ما بقائى فيكم فاقتدوا بالذين من بعدى وأشار إلى أبى بكر وعمر واهتدوا بهما »[1] .

فقد علم أبو بكر هذا كله فاختاره للخلافة . ومع ذلك فلم يستبد بالرأى ، ولم يرد أن يكره المسلمين ، بل أخذ يستدعى كبار المسلمين وذوى الرأى فيهم يستشيرهم فى استخلاف عمر فلم يستطع واحد منهم حتى الطامعون فى الخلافة أن يجدوا مطعنا فى عمر من دينه أو خلقه أو كفاءته ، بل كلهم أثنى عليه وشهد له أنه خير الناس ، وكل مايذكره التاريخ أن بعض الناس كعبد الرحمن ابن عوف قال لأبى بكر حين استشاره فى استخلاف عمر :

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٦٤

« هو أفضل[١] من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة ، فالشيء الوحيد الذى كان يخشاه بعض المسلمين أول الأمر فى عمر هو الغلظة ، ولكن هذه الغلظة نفسها فى عمر كانت من أقوى مرشحاته للخلافة عند أبى بكر ، فأبو بكر يخشى أن يطول الأمد بين المسلمين وبين رسول الله فتصحو الفتن فى نفوسهم بعد نوم ، وتشتعل الشهوات فى قلوبهم بعد خبو ، فهو يرى فى غلظة عمر رادعا لهذه الفتن ، وقامعاً لهذه الشهوات ، على أن هذا المعنى وهو أن عمر سيقمع الفتن بعد وفاة الرسول لم يكن اجتهاداً من أبى بكر ، وإنما كان حديثاً من الرسول كان يعلمه ذوو الرأى والعلم من أصحاب رسول الله ، فهذا حذيفة بن اليمان يحدث بقوله : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج كموج البحر ؟ فقال حذيفة : سمعت رسول الله يقول : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكت فى قلبه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فى قلبه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفاة فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه »[٢] قال حذيفة

---

(٢) تاريخ الاسلام النجار ص ١١١

(١) صفوة صحيح البخارى

وحدثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر . قال عمر : أيكسر لا أبالك ؟ فلو أنه فتح لعله كان يعاد . قلت : لا بل يكسر ، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثاً ليس بالأغاليط .

ولم تكن هذه الفتن التي حدثهم عنها الرسول خفية ولا معماة ، وإنما كانت واضحة بينة قد ذاقوا منها أمر ما تذوقه جماعة ، فهذه جزيرة العرب ترتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول فيبلى المسلمون في قتالهم بلاء لم يبلوه في قتال آخر ، وهذه أمم الفرس والروم تفغر أفواهها لتبتلع هذه الجماعة القليلة الناشئة من المسلمين ، وهذه عيون من المسلمين أنفسهم ترنو إلى الخلافة في غير خفية ، وألسن تجهر بالمطالبة بها في غير قصد . فالمسلمون إذن محاطون بحصار عنيف من الأعداء اللدد ، وهم مهددون فوق ذلك بالانقسام على أنفسهم ، فهم إذن في حاجة إلى خليفة قوي عظيم القوة ، حازم شديد الحزم ، مفكر بعيد التفكير ، لا تثير خلافته عصبية قرابة ولا فتنة في صفوف المسلمين . ولم يكن ذلك مجتمعا في أحد غير عمر بن الخطاب ، ولم يكن عمر معيَّناً للخلافة عند أبي بكر كما زعم الأب لامنس .

فهذه صحاح الروايات تحدثنا أن أبا بكر حينما استدعى كبار

الصحابة واحداً واحداً يستشيرهم فى استخلاف عمر ، كان ممن استدعاهم عثمان بن عفان ، فقال له : أخبرنى عن عمر . قال عثمان : أنت أخبرنا به . قال علىّ ذلك يا أبا عبد الله : أخبرنى عن عمر . فقال اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . فقال أبو بكر : رحمك الله أبا عبد الله لا تذكر فيما ذكرت لك شيئاً . قال : أفعل . فقال أبو بكر : لو تركته ما عدوتك . وما أدرى لعله تاركه ، والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئاً [1] .

فعثمان الخصم العنيد فى الخلافة الذى نرى خطبته مع الستة أهل الشورى تفيض حرصاً على الخلافة وسعياً إليها ، نراه يشهد لعمر بأنه أحق منه بالخلافة . أيقول الأب لامنس إن عثمان بن عفان ركن فى المؤامرة أيضاً . ولم يكتف عثمان بهذه الشهادة لعمر عند أبى بكر . بل نجده يفعل ما هو أكثر من ذلك ، فقد استقر رأى أبى بكر على أن يستخلف عمر ، فدعا بعثمان ليملى عليه العهد ، وقد اشتد به المرض ، وأملى على عثمان [2] : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن قحافة إلى المسلمين « أما بعد ، ثم أغمى عليه

(١) تاريخ الإسلام عبد الوهاب النجار ص ١١٠ ومثل هذه الرواية فى تاريخ الأمم الإسلامية ص ١٩٧

(٢) تاريخ الإسلام عبد الوهاب النجار ص ١١٠ ومثلها الطبرى ومثلها فى تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك ص ٢٨٦

فخاف عثمان أن يموت فى إغمائه دون أن يتم استخلاف عمر ، فكتب عثمان من نفسه : فإنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً ، ثم أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ على : فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن اغتلت فى غشيتى ، قال نعم ، قال جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ، وأقرها أبو بكر . وأعود إلى سؤال الأب لامنس فأقول : كيف يعمد عثمان الطامح للخلافة إلى تقديم عمر على هذه الصورة النبيلة الكريمة ؟ ألأنه توخى الأمانة التى توخاها أبو بكر فى اختيار الأكفاء للخلافة ؟ أم أنه شريك أيضاً فى المؤامرة المزعومة ؟ هذه بعض الحقائق التاريخية التى نرى فيها المسلمون بايعوا أبا بكر بالخلافة لأنه كان أصلح الناس لها . وأن أبا بكر استخلف عمر لأنه رآه أصلح الناس لها أيضاً .

أفينكر الأب لامنس من ذلك شيئاً ؟ إن كان ينكر فليستمع إلى رجل كان خصماً عنيداً فى الخلافة لأبى بكر وعمر وغيرهما ، فكان يرى الخلافة حقاً له بعد رسول الله ، لا ينبغى أن ينازعه فيها منازع ، ولذلك أبى أن يبايع أبا بكر وظل أمداً غير قليل يأبى أن يبايعه ، ذلك هو على بن أبى طالب . ليستمع إليه الأب لامنس كيف أنصف أبا بكر وعمر وشهد لهما بأنهما توليا الخلافة

عن حق وجدارة . فقد جاءه رجل يقال له عبد الله بن الكواء يسأله يوم صفين : أخبرنى عن مخرجك هذا تضرب الناس بعضهم ببعض ، أعهد عهده إليك النبى ﷺ أم رأى رأيته ؟ قال على : اللهم إنى كنت أول من آمن به ، فلا أكون أول من يكذب عليه ، لم يكن عندى فيه عهد من رسول الله ، ولو كان عندى فيه عهد لما تركت أخا تيم وعدى (يعنى أبا بكر وعمر) على منابرها ، ولكن نبينا كان نبى رحمة ، مرض أياماً وليالى فقدم أبا بكر على الصلاة ، وهو يرانى ويرى مكانى ، فلما توفى رسول الله رضينا أبا بكر لأمر دنيانا إذ رضية رسول الله لأمر ديننا ، فسلمت علية وبايعت ، وسمعت وأطعت ، فكنت آخذ إذا أعطى ، وأغزو إذا أغزانى ، وأقيم الحدود بين يديه ، ثم أتته منيته ، فرأى أن عمر أطوق لهذا الأمر من غيره ، ووالله ما أراد به المحاباة ، ولو أرادها لجعلها فى أحد ولديه ، فسلمت لعمر وبايعت ، وأطعت وسمعت ، فكنت آخذ إذا أعطانى ، وأغزو إذا أغزانى وأقيم الحدود بين يديه » .

هذا كلام على بن أبى طالب أكبر خصوم الخلافة وأقواهم ، الرجل الذى نصب نفسه للحرب وقيادة الجيوش من أجل حقه فى الخلافة ، ورأى آلاف النفوس الزكية تراق فى سبيلها ، أفكان يترك رجالا يتآمرون على حقه فى الخلافة وهو يملك من المكانة والتأييد عند المسلمين ما يملك ؟

الفصل الثامن

رأى عمر فيمن يخلفه

والمصادفة الثالثة وهى قول عمر « لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته» يرى فيها الأب لامنس دليلا من أدلة وجود المؤامرة على الخلافة ... ولكن التاريخ لا يؤيده من قريب أو بعيد. بل نجد التاريخ يحدثنا أن عمر كان[1] معنيا بأمر المسلمين ومن يخلفه على أمرهم . وأن هذه العناية لم تكن حين أحس بالموت فحسب ، وإنما كانت قبل ذلك بأمد ليس بقصير . فهو يقول : « إن أدركنى أجلى وأبو عبيدة حى استخلفته وإن أدركنى بعد موته استخلفت معاذ بن جبل » وهو يقول أيضاً : « قد رأيت من أصحابى حرصا سيئا ، ولو أدركنى أحد رجلين ثم جعلت الأمر إليه لوثقت به، سالم مولى أبى حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح» وهو يقول ذات مرة أيضا « لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته ولو كان خالد بن الوليد حيا لاستخلفته » كل ذلك قاله عمر .

(١) التاريخ الإسلامى د . محمد فياض ص ٢٤٣ نقلا عن ابن خلدون والطبرى وابن الأثير وغيرهم

ولم يقله فى احتضاره ، وإنما قاله وهو صحيح معافى ، يفكر فى أمر المسلمين ومن يصلح أن يلى أمرهم بعده ، فلم يكن أبو عبيدة مفضلا عند عمر تنفيذاً لمؤامرة مدبرة ، وإنما كان مفضلا لأنه من أصلح الناس للخلافة وأقدرهم عليها . ولم يكن أبو عبيدة معينا للخلافة عند عمر كما يزعم الأب لامنس فها نحن أولاء نرى من هذه الروايات أن عمر لم يكن مخصصا أبا عبيدة ، وإنما جمع إليه نفرا آخرين كان يراهم جميعاً يصلحون للخلافة ، وقد أسف حين حضره الموت لأن واحداً منهم لم يكن موجوداً ليعهد إليه بالخلافة ، فقد أرسلت إليه عائشة فى مرضه تسأله أن يستخلف على المسلمين من يصلح لهم فقال فى أسف « لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته » فعمر إذن لم يخصص أباعبيدة باختياره للخلافة كما يزعم الأب لامنس ، وإنما أشرك معه سالما مولى حذيفة وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل فى رواية أخرى ، فلم لم يقل الأب لامنس إنهم شركاء فى مؤامرته المزعومة ؟ على أن عمر قد تكرر منه هذا الحديث ، فهو يقول فى مرة أخرى وهو يعانى الموت « لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى حذيفة حيا لاستخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك

يقول إن سالما شديد الحب لله »[1] .

فكون عمر لم يخصص أبا عبيدة بترشيحه للخلافة بعده حقيقة تاريخية لا مجال فيها للريب ، وكون عمر لم يقصد بالترشيح للخلافة إلا صالح المسلمين أمر لا يرتاب فيه أيضا منصف ، ولو أن عمر كان محابياً لعهد بها إلى أحد أقاربه أو أصدقائه .

ولو أن عمر كان طامعاً لعهد بها إلى إبنه عبد الله ، فقد وجد عمر من الظروف ما يساعده على استخلاف ولده ، فهذا رجل يكفيه مؤونة الحرج مع المسلمين ، ويمهد له فى هذا الأمر ، فيشير عليه بأن[2] يستخلف إبنه عبد الله ، ولكن عمر صاح فيه : قاتلك الله ، والله ما أردتَ بها وجه الله ، فكيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا فى أمورکم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى .

ولم يكن عبد الله بن عمر خاملا ولا ضعيفا ولا مطعونا فيه من المسلمين حتى نقول إن عمر تحاشى استخلافه خشية إنكار المسلمين ، بل ننظر إلى عبد الله بن عمر فنراه صحابياً جليلا من

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية . الخضرى ص ٣٦١ .
(٢) محاضرات الخضرى ص ٣٦١ .

أصحاب رسول الله تمتع بقسط كبير من رضا رسول الله ﷺ ورضا المسلمين وكان مشهوداً له بشدة الزهد وقوة الإيمان ، وكان شخصية بارزة لامعة فى محيط المسلمين ولا يقدح فى قوة شخصيته هذا المقياس الذى قاسه به أبوه ، فمقياس عمر ليس ككل المقاييس ، إنه يريد رجلا من طرازه هو — وأنى له ذلك ؟

فعبد الله بن عمر كان يصلح للخلافة . ولعله — إذا أبعدنا عنه مقياس أبيه — كان أصلح من غيره للخلافة ، وحسبه دليلا على خطره وقوة شخصيته أن معاوية جعله ثالث ثلاثة فقط يخشى خطرهم على ابنه يزيد ، فعهد إليه أن يحذر هؤلاء الثلاثة : عبدالله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن على ، فعمر إذن لو استخلف ابنه عبد الله لم يكن جائراً ولا بعيداً عن الصواب . ولقد كان الطريق ممهداً له لو أراد ، فماذا كان يمنعه من استخلاف ابنه لو كان طامعاً كما يزعم الأب لامنس ؟ لاسيما وأنه قد خلا له الجو بوفاة أبى بكر وأبى عبيدة شريكيه فى المؤامرة المزعومة ، ولا يصلح تعيين عمر لأبى عبيدة قائداً دليلا على اشتراكه فى مؤامرة فلو كان عمر مقيداً باستخلافه لكان أجدر أن يحرص عليه فى المدينة بعيداً عن مخاطر الحروب فى هذا العهد الذى لم يكن القواد محاطين بالقداسة والحراسة ، بل كانوا يقاتلون بأنفسهم ،

ويتقدمون الصفوف فيباشرون أخطر مواقف القتال ، ولو كان تعيين أبي عبيدة قائداً تمهيداً لاستخلافه . فلم لم يعينه أبو بكر قائداً بل لم يعين أبو بكر عمر قائداً ؟ وهل فرح أبو عبيدة بها ؟ إنه آثر خالداً وتنحى عن شرف النصر ، فماذا يريد الأب لامنس بعد ذلك أن يقول ؟ .

●●●●●●●●●●●●

خاتمة

وبعد ، فهذه حقائق من التاريخ ، لم نعمد فيها إلى تغيير أو تحوير ، ولم نأل جهداً فى تمحيصها وتحقيقها ، فإذا هذه الحقائق لاترى فى أبى بكر وعمر وأبى عبيدة مطعناً كما يدعى الأب لامنس، بل إن هذه الحقائق لتبرز لنا هؤلاء القمم الثلاثة فى أروع صورة عرفتها الإنسانية والأديان ، بل إن التاريخ ليروعه منهم ما راعنا نحن ، وإنه ليقف مذهولا مأخوذاً ، لا يملك أن يوفيهم بعض حقهم من الإجلال والتكريم، وإنما يقف دهشاً يتمتم فى عبارات واضحة الدلالة : هكذا تكون النفوس الكبيرة ، هكذا يكون الإيمان العميق ، هكذا تكون التضحية فى سبيل المبادىء ، هكذا يكون الزهد فى حطام الدنيا وزينتها ، ثم لا يملك التاريخ إلا أن يشهد لهم هذه الشهادة الكريمة «كنتم خير أمة أخرجت للناس»

ولا بأس على لامانس أو غير لامانس أن يتصدى للبحث فى تاريخ المسلمين أو نقد رجالات الإسلام ، فالإسلام لا يحتكر علماً من العلوم ، بل يجعل حقائقه وعلومه ورداً يدعو إليه كل راغب فى الورود «بشيراً ونذيراً إلى الناس كافة» وليس فى الاسلام

شخصية تعلو على النقد ، ولقد كان أبو بكر وعمر اللذان تصدى لامانس لنقدهما أحرص الناس على هـــذا المبدأ الذى لم يعرف فى أمة كما عرف فى الاسلام ، وهذا أبو بكر يقول للناس فى أول خطبة له فى خلافته « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

وهذا عمر فى أول خطبة له يقول « أطيعونى ما أطعت الله ، فإن رأيتم فى إعوجاجا فقومونى » ويقول « أحب الناس إلىّ من دفع إلىّ عيوبى » .

فليس على لامانس أو غيره إذن بأس أن يبحث فى تاريخ الاسلام أو أن ينقد رجال الإسلام ، ولكن البأس كل البأس أن يتعمد الباحث التجنى على الحقيقة ، والتجافى عن أمانة العلم ، فإن أحسن ما عرفه الناس من العلماء سعيهم فى طلب الحق ، لا يصرفهم عن ذلك تأثرهم بعواطفهم ، ولا يحيد بهم تعصبهم لأديانهم ، وإن أسوأ ما ينكره الناس منهم هو هذا التعصب البغيض الذى يدفع بعضهم أحياناً إلى أن يعمد إلى تشويه الحق ، وتلبيسه بالباطل ، كما عمد إليه الأب لامانس .

وإن القرآن الكريم ليضع للناس هذا الخلق الرفيع، ليتأسوا

به فى تعاملهم مع أعدائهم أو مع البغيضين إلى نفوسهم وقلوبهم مهما يكن مصدر البغض ونوعه ، فيوجههم إلى التزامهم العدل حتى لو امتلأت قلوبهم بغضاً وشنآناً فيقول « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ولن يضير أصحاب رسول الله أن يتجنى عليهم المتجنون ، أو أن يغمز فيهم الغامزون ، فقد استيقنت نفوسهم بالله ورسوله ، فشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفتحوا بها صدورهم لملاقاة الأذى ومواجهة المصاعب، فلم تضق هذه الصدور بكثرة ما لقيت ، ولم تفزع من هول ما واجهت ، وإنى لأخالهم يجيبون الأب لامانس بمثل هذا المعنى القصير العميق .

فإنا وما تلقى لنا إن هجوتنا

لكالبحر مهما تلق فى البحر يغرق

ولست أكره أن يفهم الأب لامانس ، أو من يمثل موقفه أنى متعصب للإسلام،فلاجرم على إنسان يتعصب لدينه وعقيدته، ولكن الجرم كل الجرم أن يجور التعصب بصاحبه عن الحق ، وأن يغريه بتنكب الإنصاف ، وتجاهل الحقيقة ، وظلم الأبرياء .

فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩٤ – ١٩٨٠
الترقيم الدولى ٥ – ٠٩ – ٧٢٩٤ – ISBN ٩٧٧